الزعيم وظليله

بقلم

د.محمد فتحي عبد العال

الزعيم وظليله

بقلم

الدكتور محمد فتحي عبد العال

الكاتب والباحث المصري

مقدمة

يقول ابن خلدون: (إنّ التاريخ يوقفنا على ظروف الأمم السابقة، وأخلاقهم، وسِير الأنبياء، والملوك، وطبيعة سياستهم كي يتم الاقتداء بهم، والابتعاد عن أخطائهم التي ارتكبوها). من هنا يتجلى لنا الهدف من التاريخ وهو تصقيل الجانب الأخلاقي في حياة الأمم وادراك هذا الهدف السامي لا يمكن بلوغه دون أن نقرأ التاريخ كما حدث لا كما نريده أن يكون... وفي الآونة الأخيرة مارس الكثيرون صنوفا عدة من تشويه التاريخ عبر حذف بعض حقائقه أو تبديلها أو الالتفاف عليها في سبيل تقديم صور مثالية لم تحدث في الأساس وذلك لخدمة أيدولوجيات ظنوا أنها تنهض من كبوتها حينما نقدم للنشء مسخ من التاريخ كله بطولة دون أخطاء فيتحول التاريخ من عظة واعتبار وتربية وأخلاق إلى صورة من صور الاستظهار دون إعمال للعقل أو تنمية للفكر.

لذلك كان تقديمي لهذا العمل متمنيا أن يقدم صورة قريبة من حقيقة أبطال التاريخ قديما وحديثا

والله من وراء القصد

المؤلف

د. محمد فتحي عبد العال

المقال الأول: زعيم الأمة

لقد احتل سعد زغلول مكانة كبيرة في نفوس المصريين فلأول مرة يجتمع المصريون حول زعيم يسيرون خلفه ويوكلونه في قضية مصيرية هي قضية الجلاء عن القطر المصري بعد احتلال انجليزي غاشم

كان سعد يمتلك زعامة وتأثير طاغ في نفوس محبيه الا ان هذه الصورة كان يقابلها وجه اخر وحياة موازية في الخفاء لم يطلع عليها أحد ولم يتحدث عنها أحد حتى أكثر خصومه شراسه وما اكثرهم الا سعد زغلول ذاته !!أجل سعد زغلول الانسان قرر ان يصارح سعد زغلول الزعيم بحقيقته. ففي كراسات مثلت يوميات اشبه بالمرآة اليومية لحياة سعد الخاصة وبخط يده الذي بدا منسقا ومرتبا في صفحات وغير مقروء في صفحات اخري راح الظليل الانساني للزعيم يحكي ويقص ما لو اطلع عليه معاصروه لكفروا برسالته وانفضوا من حوله.. هو ذاته يعترف بهذه الحقيقة فيقول في مطلع مذكراته (ويل لي من الذين يطالعون من بعدي هذه المذكرات)

يعترف سعد زغلول في مذكراته بأدمانه علي لعب القمار والبوكر وكيف ان هذه العادة الذميمة قد اضاعت ثروته ثم يحلل الدافع الذي يقف وراء ادمانه للعب فيقول (كنت قبل (12) سنة أكره القمار وأحتقر المقامرين، وأرى أن اللهو من سفه الأحلام واللاعبين من المجانين، ثم رأيت نفسي لعبت وتهورت في اللعب، وأتى علي زمان لم أشتغل إلا به، ولم أفتكر إلا فيه، ولم أعمل إلا له، ولم أعاشر إلا أهله، حتى خسرت فيه صحة وقوة ومالا وثروة) (مذكرات سعد: المخطوطة، كراس 3/ ص 129) وذكر مثل ذلك في (كراس 26/ ص 1390) قال: (كنت أتردد بعد عودتي من أوربا على الكلوب -أي نادي محمد علي- فملت إلى لعب الورق، ويظهر أن هذا الميل كان بداية المرض، فإني لم أقدر بعد ذلك أن أمنع نفسي من التردد على النادي ومن اللعب، وبعد أن كان بقليل أصبح بكثير من النقود، وخسرت فيه مبلغا طائلا). وقال في (الكراس 28 ص 1571): (أريد أن أعرف ما أريد حتى أتمكن من معالجة نفسي من هذا الداء: هل أريد بسطة في الرزق ؟ إنه يقبضه في الكثير الغالب. هل أريد سعة في الجاه ؟ إنه يضيقه بما يحط من القدر في نفوس الناس. هل أريد تناسي آلام تتردد على النفس عند خلوها من الشغل وهو كثير ؟ لا أشعر بهذه الآلام .... وما كنت أصغي لنصائح زوجتي ولا أرق لتألمها من حالتي، ولا أرعوي عن نفسي..)

ثم مضي يعدد في البيوت والضياع التي باعها وخسر أثمانها في القمار، وهي لا تقل عن (400) فدان و(18) ألف جنيه: (أصبحت منقبض الصدر، ضائق الذرع، ولم أنم ليلي، بل بت طوله تساورني الهموم والأحزان، وأتنفس الصعداء على ما فرط مني في اللعب وضياع الأموال التي جمعتها بكد العمل وعرق الجبين وصيرورتي إلى حال سيئة).. كما انه يكشف عن علاقته بزوجته السيدة صفية زغلول تلك العلاقة التي شابها الكثير من الخلافات بسبب القمار وكيف انه فكر في الزواج عليها سرا لعقمها!!!

وامعانا في عقاب نفسه لإدمانها القمار طالب سعد اسرته الا يدفن بين اهله حال وفاته ان لم يقلع عن هذه العادة فيقول "أوصى كل من يعيش بعدي من لهم شأن في شأني أني إذا مت من غير أن أترك اللعب أن لا يحتفلوا بجنازتي، ولا يحتدوا على ولا يجلسوا لقبول تعزية ولا يدفنوني بين أهلي وأقاربي وأصهاري، بل بعيدًا عنهم وأن ينشروا على الناس ما كتبته في اللعب حتى يروا حالة من تمكنت في نفسه هذه الرذيلة وبئست العاقبة".

المتتبع ليوميات سعد يلمح ثلاثة اطوار لحياته تتداخل في افكاره وتلح عليه فيخلط الاوراق بشكل غريب ..اولي هذه الاطوار طور المهادنة والمجاملة مع الانجليز فسعد المجامل والمهادن الذي يري ان الاحتلال حقيقة قائمة لابد من التعايش معها تزوج من السيدة صفية ابنة مصطفي باشا فهمي اول رئيس وزراء لمصر بعد الاحتلال وصاحب اطول الوزارات عمرا في عهد الاحتلال كما تبناه اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر ورشحه لوزارة المعارف ضمن التيار الليبرالي الذي كان يعده كرومر لتغيير الهوية الاسلامية لمصر بأخري وطنية تدعم فكرة انغلاق مصر علي نفسها وان مصر للمصريين وحسب ..ملامح هذه المرحلة من حياته نجدها في وصفه لكرومر -رمز الاحتلال البغيض- بالكمال في كل شيء وانه يستحق التكريم بينما مصطفي كامل الشاب الذي لم يقبل المهادنة او الانصياع للاحتلال وكان السبب في عزل كرومر فيصفه سعد بالنصاب والمنافق الكاذب !!! ويستثقل علي قاسم امين تكريمه بعد وفاته.

كما يدافع عن موقف اخيه احمد فتحي باشا زغلول والذي كان ضمن محكمة دنشواي التي قضت بالإعدام على عدد من فلاحي القرية والجلد والسجن للأخرين

الاكثر غرابة في يوميات سعد هو موقفه من مظاهرات ثورة ١٩١٩ التي خرجت تندد باعتقاله ونفيه فقد اعتبر التظاهر خروج على النظام لا يحقق فائدة، ويهدم ولا يبني، ولابد من معاقبته!!!!

نأتي الي الطور الثاني من شخصية سعد وهو سعد الانسان الذي يبحث عن ذاته وسط تناقضات شتي داخله فالرجل ذو العباءة الازهرية والتي تغطي ثوبا ليبراليا يدافع وزوجته عن السفور كما يتبني موقفا معاديا من تدريس اللغة العربية في المدارس حينما كان وزيرا للمعارف بينما يصف طه حسين بالبقر بعد كتابه في الشعر الجاهلي عام ١٩٢٦- والذي انكر فيه صحة الشعر الجاهلي وشكك في صحة وجود النبيين ابراهيم واسماعيل وصحة بنائهما للكعبة -فيقول «إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر في هذه الأمة المتمسكة بدينها، هبوا أن رجلًا مجنونًا يهزئ في الطريق، فهل يضير العقلاء شيء من ذلك؟، إن هذا الدين متين، وليس الذى شك فيه زعيمًا ولا إمامًا حتى نخشى من شكه على العامة، فليشك ما شاء، ماذا علينا إذا لم يفهم البقر؟».!!!!

نأتي الي الطور الاخير من حياة الرجل: وهو سعد الزعيم.. كان التفاف الشعب حول سعد مرحلة فارقة في حياته جعلته زعيم رغم انفه.. لقد قرر سعد فجاءة ان عليه واجب وامانه في عنقه وان عليه الا يخيب آمال من وضعوا ثقتهم به فكافح في المرحلة الاخيرة من عمره بصدق وصلابة عن القضية المصرية وضرورة جلاء الاحتلال عن مصر..

حينما كتب سعد يومياته هذه لم يقصد ابدا ان تنشر يوما وتكون متاحة للقراءة بل تضمنت وصيته السيدة رتيبة- بنت أخت -سعد زغلول ووالدة (مصطفى وعلى أمين)

وجمعت السيدة صفية زغلول ورثة سعد زغلول وتم الاتفاق على تسليم اليوميات لمصطفى باشا النحاس زعيم الوفد الجديد لتوضع كأمانة عنده ويكون له حق حذف ما يرى حذفه من المسائل السياسية التي لا تجوز إذاعتها في حال نشرها، ويكون لفتح الله بركات باشا - ابن شقيقة سعد - حق حذف المسائل العائلية التي يرى حذفها.

كان اول ذكر لمذكرات سعد زغلول علي صفحات روز اليوسف ومن خلال الكاتب محمد التابعي الذي تراجع عن استكمال مقتطفات منها تحت ضغط اسرة سعد زغلول ولم يكن لديه اليوميات كاملة.

خشي (مصطفى النحاس باشا) على هذه اليوميات من المصادرة في عهد الحكومات التي اعقبت الوفد وتريد التشهير بالوفد وبرجاله فأودعها في خزانة خاصة ببنك مصر وقد ظلت المذكرات حبيسة حتى قامت ثورة ١٩٥٢ وطالها التأميم لتخرج للعلن وتتاح للباحثين..

المقال الثاني: مشايخ الأزهر

من اللوحات التاريخية البديعة في تاريخ مصر تلك التي تجسد الحقبة التي شهدت انتهاء الحكم العثماني والمملوكي ودخول الفرنسيين لمصر ثم انتهاءا بتولية محمد علي باشا لحكم مصر فقد حفلت هذه الفترة بزعامات شعبية شتي نستطيع ان نظلل بها مساحات تجسد واقع الزعامة التاريخية في مصر واشكالياتها والصراع النفسي الذي يسودها والمؤثرات الخارجية من حولها ...

نتوقف عند إحدى هذه اللوحات والتي اعتبرها تمثيل لنقطة البداية حيث اجتمع العلماء والمشايخ من الازهر والذين كانوا يمثلوا زمرة الطبقة المثقفة في مصر في هذه الاثناء يتقدمهم الشيخ الشرقاوي شيخ الازهر والشيخ عمر مكرم نقيب الاشراف والشيخ خليل البكري والشيخ السادات والشيخ الامير حيث اتفق الجميع ومن ورائهم الشعب على وضع حد للظلم والضرائب الباهظة التي فرضها حاكمي مصر مراد بك وابراهيم بك آنذاك..

كانت شكوي اهالي بلبيس من جبايات الامير محمد بك الالفي وذهابهم الي الشيخ الشرقاوي الشرارة الاولي لهذه الثورة الشعبية العارمة والتي تقدمها المشايخ فأغلقوا الجامع الازهر والحوانيت وامام ثورة الشعب انصاع مراد بك وابراهيم بك لإجابة المطالب ووقعا وثيقة علي مضض برفع الظلم ووقف الضرائب والمكوس وكانت ثمرة هذه الثورة اول ماجنا كرتا في التاريخ نظمت العلاقة بين الحاكم والمحكومين وقيدت سلطاته المطلقة في سلب اموال الناس بالباطل ...انها حقا للوحة بديعة اجتمعت فيها كل عناصر النجاح فالمصري المشهور بسلبيته المثالية تجاه الاستبداد والنخب المثقفة التي تسودها الفرقه قد خلعوا ثياب السلبية والفرقة وقرروا ان يصنعوا التاريخ تاريخ خلف ورائه دستورا بأراده شعبية ارغمت حاكمي مصر المستبدين علي الايجاب والخضوع..

هذه اللوحة البديعة سرعان ما تبددت وتناثرت عناصر قوتها مع الوقت فإشكالية المصريين انهم لا يعرفون العمل الجماعي ابدا لا على مستوي الزعامات ولا على مستوي الافراد العاديين وهنا دوما موضع الفرقة والتفرق غير المعصوم بعد كل حركة ثورية سواء اكانت سابقة على هذه او لاحقة عليها فدروس التاريخ تمضي مرور الكرام..

وفي حالتنا هذه سرعان ما انفرط عقد المشايخ مع قدوم الحملة الفرنسية على مصر وكل شيخ من الشيوخ الذين تزعموا الحركة الثورية السابقة مضى بطريق...

فعمر مكرم اول ابطال لوحتنا هو الشيخ الذي تمتع طوال مواقفه بكاريزما قيادية مثالية جعلته دوما محط الغبطة والغيرة من اقرانه من المشايخ وعلي رأسهم الشيخ البكري فقد اختار ان يقف بجانب المماليك في معركتهم ضد الفرنسيين من منطق الوقوف بجانب الحاكم الظالم في مواجهة خطر اكبر وهو مواجهة الكفرة الغاصبين!!!...ومع انكسار المماليك خشي عمر مكرم علي حياته وفر الي العريش ثم يافا ومع قدوم نابليون الي يافا وقتله لحاميتها الا انه علي العكس من ذلك اكرم المصريين هناك ومنهم عمر مكرم والذي عاد الي مصر واعتزل الحياة السياسية تماما ومع ثورة القاهرة الثانية كان لا يزال ظليل الزعيم هو المسيطر عليه وروح الخوف من مواجهة العقوبة هي عنوان هذه المرحلة من حياته ففر مرة اخري ولم يعد لمصر الا مع جلاء الفرنسيين عن مصر ودخول الجيش العثماني لمصر حيث اعادوه لمنصبه كنقيب للأشراف..

اما الشيخ الشرقاوي فقد آثر السلامة مع الفرنسيين منذ البداية ولم يغادر مصر وراح يرقب الموقف عن كثب تاركا الظالمين يقاتل بعضهم البعض فلما استقر الامر للفرنسيين قرر ان يكون حمامة السلام بين الفرنسيين والمصريين فأكرمه نابليون وجعله على رئاسة الديوان بالإضافة الي جمعه بين منصبي شيخ الازهر (الشئون العلمية والفقهية) ومنصب ناظر الازهر (الشئون الادارية) وهو جمع متفرد للمناصب لم يسبقه اليه احد مما اوغر عليه صدر اقرانه من المشايخ وفي مقدمتهم الشيخ الامير!! كان اندلاع ثورة القاهرة الاولي وتدنيس الفرنسيين لساحات الازهر ايذانا بأثارة حمية الشيخ لمعتقداته الدينية فتخلي عن الدعة وداخلته روح الثورة من جديد فأنضم الي صفوف الثورة وتم اعتقاله ثم أفرج عنه نابليون لحاجته اليه ومع ثورة القاهرة الثانية تم اعتقاله ثم أفرج عنه مع خروج الفرنسيين من مصر..

شهدت العلاقة بين عمر مكرم والشرقاوي انقساما كبيرا بعد رحيل الفرنسيين عن مصر..

فمع تولي خورشيد الوالي العثماني لحكم مصر ارهق المصريين بالضرائب مما دعا المشايخ الي نبذ الفرقة والالتفاف خلف اللوحة الرائعة للثورة ضد خورشيد وكما قلنا من قبل حيثما يثور المصريون فأنهم يصنعون التاريخ فقد قرروا خلع خورشيد باشا الظالم واختيار اول حاكم لمصر وفق ارادة شعبية ..الغريب انهم لم يختاروا من بينهم احدا فروح المنافسة والصراع والكراهية الكامنة في صدورهم لبعضهم البعض وان ظلت مطوية في النفوس الا انها كانت سيد

الموقف فوقعوا في الخطأ الكبير وفرغوا هذه السابقة التاريخية العظيمة من مضمونها حينما اتفقوا علي تولية حاكم اجنبي اضافة الي كونه عسكري هو محمد علي باشا !!!!

كان الانقسام بين الرجلين حول طريقة اخراج خورشيد من الحكم فقد استخدم عمر مكرم اسلوب الثورة المسلحة ضد خورشيد وامر الاهالي بالتسلح اما الشرقاوي فقد كان ممتعضا من بزوغ نجم عمر مكرم وقدرته علي الحشد الشعبي فقرر ان يفسد عليه خطته فأتفق مع محمد علي علي دعوة الاهالي لترك السلاح والعودة الي حياتهم الطبيعية ..تقبل عمر مكرم هذه الصفعة الموجهة الي شخصه لكنه عزم علي الانتقام وواتته الفرصة مع حملة فريزر علي مصر حيث امر الاهالي بحمل السلاح واصدر اوامره الي مجاوري الازهر بترك دروسهم والاشتراك بالمعركة فلبي الجميع نداءه واصبح واضحا ان الكلمة العليا صارت لعمر مكرم علي حساب الشيخ الشرقاوي والحقيقة ان عمر مكرم لم يكن وحده من قوض سلطة الشرقاوي فقد نجح الشيخ الامير في انتزاع منصب ناظر الازهر من الشرقاوي ومع تفاقم الصراع وجد محمد علي الفرصة سانحة لتحجيم الشيخ الشرقاوي وتحديد اقامته وعدم السماح له حتي بصلاة الجماعة !! غير ان تدخل الدولة العلية منع محمد علي من الاستمرار في ذلك لكن الرجل بقي دون ايه صلاحيات تذكر..

بدا امام محمد علي ان عمر مكرم هو الاخطر علي سلطته المنفردة فقد تصدي عمر مكرم لقرار محمد علي بفرض ضرائب علي الاراضي الموقوفة والتي ينفق منها علي المدارس الدينية والمساجد ولاقت دعوته استجابة المشايخ فاستدعي محمد علي المشايخ للتشاور الا انهم رفضوا جميعا حتي يعود عن هذه الضريبة وكان اشدهم صمودا عمر مكرم ..فقرر محمد علي ان الفرصة قد حانت لإقصاء الرجل فاستمال اليه الشيخ الشرقاوي والمهدي والدواخلي وبذلك كسر جبهة الصمود من حول عمر مكرم وفي حضور العلماء والقضاء قرر عزله عن نقابة الاشراف ونفيه الي دمياط ..وهكذا انتهت الرحلة بزعيمنا عمر مكرم في المنفي تحت الحراسة المشددة اما الشيخ الشرقاوي فقد بقي قيد الاقامة الجبرية حتي موته...وهكذا كانت نهاية اثنين من ابطال لوحتنا..

اما الشيخ السادات بطلنا في لوحة البداية فلم تغيره الظروف فبقي صلبا محافظا علي الحق فمع دخول الفرنسيين وتشكيل الديوان فقد رفض المشاركة وفي ثورة القاهرة الاولي اتهم بالتحريض بينما في الثانية قبض عليه كليبر وفرض عليه غرامة كبيره وحينما رفض أمر كليبر بحبسه في القلعة فكان يضرب بالعصا ليل نهار ومما زاد مأساته ان حبست معه زوجته فكان يضرب

امامها وهي تبكي وحينما مرض ولده لم يسمح له بزيارته وحينما مات الابن سمح له بالمشاركة في الجنازة كل هذا العذاب لم يفت في عضد الشيخ الشجاع البطل وظل في صموده وكان هذا التعذيب هو السبب الرئيسي في اغتيال كليبر بعد ذلك...

اما الشيخ خليل البكري فالحقيقة انه مثل اسوء انواع التحول في هذه اللوحة السابقة فالتغير الذي طرأ عليه كان مثيرا فقد غض بصره عن تبرج ابنته زينب والذي يصوره الجبرتي في تاريخه بأنها كانت تلبس الفستانات وتسير مكشوفة بين الناس وكان هذا من عظائم الامور في هذه العصور وكان انخراطها في وسط الفرنسيين وعلاقتها بنابليون والذي رأي فيها النسخة الشرقية من زوجته جوزفين كانت محل شكوك وتساؤلات بين مؤيد ومعارض حتى يومنا هذا!!

والحقيقة ان الثمن كان زهيدا إذا ما قورن بتضحية الشيخ بسمعته حيث كان حلم الشيخ البكري ان يصبح نقيبا للإشراف مكان الشيخ الهارب عمر مكرم وهو ما حققه له نابليون ...ومع جلاء الفرنسيين عن مصر ضحي الشيخ بابنته للمرة الثانية وتركها لانتقام الناس مطالبا اياهم بقصف رقبتها على حد تعبيره!!! حيث لقت مصرعها في النهاية.

من لوحة الثورة ننتقل الي لوحة تاريخيه اخري انها المقاومة للمحتل الفرنسي وفيها تبرز زعامتين جمعهما هدف واحد ومصير واحد ايضا!!! ولقد كان هذا المصير درسا في وجدان المصريين جعل من الزعامة خيارا صعبا ومستحيلا في احيانا كثيرة!!!

الاول كان حاكم الاسكندرية محمد كريم الذي استبسل في الدفاع عن الاسكندرية واعتصم بقلعة قايتباي حتي فرغت ذخيرته فاضطر للاستسلام لنابليون والذي احترم استبساله واقره حاكما مدنيا للإسكندرية وعين الجنرال كليبر حاكما عسكريا للإسكندرية ...الا ان محمد كريم عاد لقيادة مقاومة مسلحة ضد الفرنسيين كبدتهم خسائر في الارواح والمهمات فعاد نابليون للقبض عليه من جديد ووضع مصيره بين خيارين اما الاعدام رميا بالرصاص او دفع الفدية وهنا تختلف الرواية المصرية والتي جسدها الجبرتي عن الرواية الفرنسية والتي كتبها بعض القادة المعاصرين اثناء الحملة فيزعم الجبرتي ان كريم قبل ان يدفع الفدية الا انه لم يكن معه المال الكافي فتوسل للتجار واثرياء المدينة ان يدفعوها عنه قائلا :اشتروني يا مسلمين ولكن دون جدوي فالجميع منشغل بحاله !! كما يقول الجبرتي وقتل الرجل رميا بالرصاص.

انا الرواية الفرنسية فتتحدث عن رفض كريم للفدية وتفضيله للموت.. وهو الذي وضع المؤرخين في حيرة في تبني اي الروايتين حقا؟!!

نأتي للزعامة الثانية في لوحة المقاومة ونأتي علي ذكر الحاج مصطفي البشتيلي تاجر الزيوت بحي بولاق ابو العلا والذي اشعل من حي بولاق ثورة القاهرة الثانية وتولي امداد الثائرين بالأسلحة وتحمل كلفة ذلك من ماله الخاص فأغار كليبر علي الحي والذي تحول الي ركام ولان المحتل ليس من نهجه صناعة الابطال الذين يظلون عالقين بذاكرة اوطانهم فقد اوغر كليبر صدور المصريين علي البشتيلي متهما ايه بأنه السبب في الدمار الذي لحق بحيهم وارزاقهم فتم معاقبته بالتجريس حيث اركب حمارا مقلوبا وطيف به وسط شتائم وبصق المصريين عليه !!!!!...

لقد كان مصير كريم والشربتلي درسا قاسيا للزعامة في مصر عبر الاجيال فصراع داخلي يتخلل النفس بين الزعيم وظليله يدفعه للتساؤل دوما لماذا اتقدم الصفوف؟ ولماذا اخاطر بذاتي؟ وماذا سأجني؟ ولماذا انا دون غيري؟ وهل سيذكرني التاريخ ام سينساني مثل غيري ممن رحلوا في صمت؟ القليل من يخرج من هذه الدوامة النفسية بأن يكون زعيما مهما كلفه الامر من مشاق ومهما كان المصير وهؤلاء هم أعمدة التاريخ..

انه لمن الصواب ان نقول ان مصير كريم والشربتلي جسد المصير الذي عادة ما يلاقيه كل ثائر من اجل شعب جاهل فهو كمن يضمر النار في جسده ليضيء الطريق لعميان ولكن حكام مصر منذ فجر التاريخ حافظوا على ابقاء جل الشعب جاهل فلا تندهش سيدي القارئ إذا علمت ان الدعوات الي محو الامية في مصر بدأت منذ عهد اخناتون الي اليوم اي منذ ما يربو على خمس وثلاثين قرنا من الزمان دون تحقيق اي نتيجة تذكر ولا يزال الجهل في ربوع مصر

المقال الثالث: صلاح الدين الوجه الاخر

حينما نتحدث عن الزعيم في اصطلاحنا العربي فضع تحته كل ما هو منزه وكل ما هو فريد من الصفات والخلال والتي ترفع صاحبها الي مصاف الالهة احيانا ...

اما ظليل الزعيم فهي المساحة النفسية المقابلة للتنزيه والتي تعبر عن الشخصية الحقيقية بما تحمله من جوانب انسانية طبيعية ومتنوعة انها المساحة التي نلتقطها من مذكرات الزعيم او من لحظات صدق أفضى بها الي مقربيه او من هفوات الزعيم التي تكشف عن مكنون نفسه دون ارادة منه.. ظليل الزعيم هو الزعيم كما يري نفسه وبوجهه الانساني الخفي بضعفه وقوته وشجونه وافراحه وسقطاته وانجازاته الحقيقة بعيد عن التزيين والتكلف ...

كلما قطعنا شوطا بعيدا في التاريخ وخاصة لو وصلنا به الي العصور الوسطي اصبحت مسألة التماس القرب من ظليل الزعيم لا ملجأ لها الا من خلال كتابات المقربين والذين قد لا يكونوا محايدين في احيانا كثيرة.. اننا لا نعني ابدا بعدم حيادهم كونهم غير صادقين بل بالعكس قد يكونوا صادقين تماما ولكن الاشكالية لدينا اننا لم نقرأهم بلغة ازمنتهم!

من الحكام الذين ظلمهم التاريخ المعاصر كان صلاح الدين الايوبي والذي اجتزأ من سياق عصره وحمل زعامة تتناقض افعاله في احيان كثيرة مع الصفات القدسية التي افترضتها واحتضنتها هذه الزعامة في نظر أيدولوجيات معاصرة شتي فهو عند الاشتراكيين عنوانا للوحدة والتآخي والتعايش السلمي وعند الاسلاميين فارسا وموحدا للامة علي قلب واحد ومحررا للقدس ...

ولنبدأ قصة صلاح الدين أو يوسف بن ايوب من البداية ...يختلف المؤرخون حول نشأة يوسف بن ايوب او كما اشتهر في التاريخ بصلاح الدين وهو الاسم الذي اختاره لنفسه فمنهم من يزعم انتماءه الي الاكراد وتحديدا الي اسرة كردية نزحت من اذربيجان واستعربت بالعراق ويري أخرون ان جذوره عربية وتحديدا الي مروان بن محمد اخر الخلفاء الامويين وان ابوه كان حاكما لقلعة تكريت ثم بعلبك..

كان سطوع نجم صلاح الدين مع تحولات سياسية خطيرة في مصر استدعت تدخل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سلطان الشام لنجدة الفاطميين في مصر ...

كان الحكم في مصر في نهاية عصر الفاطميين بيد الوزراء وفي عهد الخليفة العاضد لدين الله اخر خلفائهم شب الخلاف بين وزيري الخليفة ضرغام والذي استعان بالصليبين وشاور الذين استعان بقوات نور الدين محمود والذي ارسل حملة لمصر بقيادة اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين فتغلب علي ضرغام واستتب الامر لشاور والذي سرعان ما تنكر لحليفه نور الدين محمود واستعان بملك بيت المقدس عموري الاول والذي استطاع اجلاء قوات شيركوه عن مصر فأنفذ نور الدين حملة جديدة علي مصر بقيادة اسد الدين شيركوه ويعاونه ابن اخيه صلاح الدين استطاعت في النهاية السيطرة علي مصر .

عين العاضد اسد الدين شيركوه وكلمة شيركوه (كلمة كردية تعني اسد الجبل).. وزيرا ولكنه مات من التخمة الشديدة حيث كان كثير الاكل بحسب معاصروه!!! وذلك بعد شهرين من توليه الوزارة تاركا خلفه مالا كثيرا وخمسمائة مملوك شكلوا ما عرف بالمماليك الاسدية وهو ما يمكن اعتباره من البدايات لفكرة المماليك او الجنود المرتزقة المجلوبون من كل حدب وصوب ليكونوا بديلا عن الشعب المصري الذي كان من المفترض ان يكون نواة الجيش المنوط به الدفاع عن مصر وهو ما انتهجه الايوبيون طوال دولتهم. فعين العاضد صلاح الدين والذي كان الساعد الايمن لعمه اسد الدين شيركوه وخلع عليه لقبه الذي نعرفه به الان الناصر: ناصر أمير المؤمنين العاضد بالله الفاطمي....

وهنا يظهر صلاح الدين بشخصيته السياسية لقد عاش البطل السني عند الملايين من علماء السنة في كنف الدولة الفاطمية الشيعية لم يفكر يوما في تغيير نظام الحكم بها بشكل مباشر على الرغم من ضعف الخليفة الواضح وتمكن صلاح الدين من السيطرة الكاملة على زمام الامور ...

الحقيقة التي يبتعد عنها السلفيون المعاصرون والمتدينون الحالمون بعودة صلاح الدين أن الخط الديني لم يكن ابدا المحرك لصلاح الدين او السابقين عليه والذين تأثر بهم ولنستدلل بشخصية عماد الدين زنكي الزعامة الاسلامية الأخرى لدي الاسلاميين فحينما استولي علي حلب اظهر تسامحا كبيرا مع الشيعة وأقرهم على آذانهم (حي علي خير العمل) طوال حياته وهذا ليس مستغربا فهو جزء من لعبة السياسة والحكم والمكيافيلية القديمة التي سادت هذه العصور وهي بعيدة تماما عن المثاليات التي نفترضها ....

كان تعيين صلاح الدين لمنصب الوزارة موغر لصدور كثيرا من القادة والسياسيين في البلاط الفاطمي مما ولد معارضة شديدة ضده وهو الهابط عليهم من بيئة مختلفة ولديه طموحات مقلقة لهم وكان لصلاح الدين ضيق واضح بالمعارضة ولا يتعامل معها الا بالقتل فدبر لقتل كبير الطواشية بقصر العاضد (وهو منصب رفيع اشبه بقائد الحرس الملكي بلغتنا المعاصرة) أو "مؤتمن الخلافة": جوهر السوداني غيلة مبررا ذلك بعلاقته مع الصليبين وانه اكتشف رسالة من مؤتمن الخلافة مرسلة الي الصليبين ومخبأة في نعلين!!!

مع انه لو كان هذا الزعم حقيقيا فلما لم يحاكمه علنا وقد قبض على رسوله؟! واظهر حقيقته امام اعوانه وبالتالي جنب الدولة مغبة مواجهة مسلحة مع عشيرته حيث أثارت هذه الخطوة بالطبع ثورة السودانيين والنوبيين فشكلوا جيشا ضخما للثأر لمؤتمن الخلافة، اشتبك معهم صلاح الدين بقواته كما أرسل قواته لحرق مركزهم بالمنصورة واعمل فيهم السيف حتى ابادهم واحرق أسرهم دون هوادة فهل هذه كياسة من قائد تصلح سيرته لكل زمان!!! ام انه قائد في عصره وفي حيز مفاهيم العصور الوسطي في التعامل مع المعارضة؟!!

وبمقتل جوهر أصبح الطريق ممهدا أمام صلاح الدين لأحكام قبضته علي قصر العاضد فاستعان بأحد اعوانه في ادارة شئون القصر الفاطمي وهو خادم خصي يدعي بهاء الدين قراقوش احد اكبر اعوان الجور والاستبداد واكثرهم كراهية لاي بؤر معارضة...ويعتبر كتاب الفاشوش في حكم قراقوش للأسعد بن مماتي من الكتب الهامة في تصوير طريقة حكم قراقوش والحقيقة اننا نختلف عن الكثيرين ممن يقللون من قيمة الكتاب ويضعونه في مصاف الكتب الهزلية ذلك ان ابن مماتي بالإضافة الي كونه حاذقا باللغة وآدابها كان مسؤول عن ديوان الجيش والمال وهي مسؤوليات كبيرة في عهد صلاح الدين وبالطبع كان قريب من قراقوش بحكم مهامه مما يجعل كتابه شهادة علي العصر وليست من قبيل الهزل ..

بوفاة العاضد المبكرة تتجلي لنا صورة صلاح الدين الانسان الذي لم ينس عشرة العاضد فبكي لوفاته بشدة واجل اعلان انتهاء دولته. لكن اعتقد ان استعجال نور الدين لهذه الخطوة هو الباعث لحركات صلاح الدين المتسارعة بأعلان الكثير من الاجراءات التي كانت ممكن ان تسير بشكل هادئ لو تحلي صلاح الدين ومن فوقه نور الدين بقدر من الكياسة والدعة فلا يمكن انهاء معالم دولة استمرت لأكثر من مئتي عام بين عشية وضحاها!! ومن هذه الاجراءات :اعلان انتهاء الدولة الفاطمية وقطع الدعاء للخليفة الفاطمي واغلاق الازهر وحركة الاعتقالات الواسعة التي طالت امراء البيت الفاطمي وترك نسائهم مستباحه للعوام وبيع كتب

الفاطميين بمكتبة دار الحكمة بالبخس وفي بعض الروايات حرقها خاصة ان هذا السيناريو مشابه لما فعله نور الدين مع شيعة حلب بعد وفاة ابيه عماد الدين زنكي وان لم يكن بنفس الضراوة والشراسة ولعل اكثر خطوات صلاح الدين تكتيكا هي تسريح الجيش الفاطمي بمصر والذي كان يضم امراء مصريين وخليط من السودانيين والارمن واستبداله بجيش جديد من المماليك الاتراك والاكراد وعلي رأسهم مماليك عمه الاسديين الذين اغدق عليهم الاقطاعات ليكون ولائهم لصلاح الدين ومن وقتها اصبح استبعاد المصريين عن الجندية بشكل جذري تقليدا لقرون طويلة حتي مجيء محمد علي باشا !!!!

كان اسلوب صلاح الدين المروع في اجتثاث بقايا حكم الفاطميين سببا مباشرة في انطلاق الثورة عليه من الصعيد في مدينة قفط تحديدا وعلى غرار طريقة الحكام العرب في التعامل مع المعارضة كان السيف مقدما على اية تفاهمات فقتل خلقا كثيرا في الثورات ضد حكمه....

لم يكن الوازع الطائفي ابدا محركا لصلاح الدين في تقرير اعدائه فكما اوقع بالفاطميين فقد قتل الاديب والمحدث والفقيه السني عمارة اليمني وهو سني شافعي متشدد وصلبه علي باب بيته وذلك علي خلفية اتهامه هو وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة وأخرون بالعمل علي عودة الفاطميين بمعاونة الصليبيين اثناء غياب صلاح الدين بالكرك ..صحيح ان عمارة كتب اشعارا في الحنين الي ايام الفاطميين الا ان هذا لا يمنع حقيقة انه قاوم كل محاولات الفاطميين لتشييعه وترك مذهبه السني وهو ما أكد عليه في كتابه النكت العصرية ..

كانت دولة صلاح الدين دولة عصرية مدنية وليست دينية ابدا فالقائم علي بيت المال كان الاسعد بن مماتي وهو من أسرة قبطية وحديث العهد بالإسلام كما كان طبيب قصره رئيس الطائفة اليهودية موسي بن ميمون وهو من أهم اللاهوتيين اليهود في العصور الوسطى وهو الذي تظاهر بالإسلام هروبا من الموحدين في المغرب وحينما اتي مصر ارتد صراحة وعيانا بيانا عن الاسلام!! فما الذي دفع السلطان الذي استل سيفه على معارضيه ببينة وبغير بينة الي غض الطرف واسقاط حد الردة بحق طبيبه ام ان الامر لم يكن يعنيه لأنه قائد سياسي برجماتي في الاساس.. المدهش ان صلاح الدين نفسه أمر بقتل ابو الفتوح يحي بن حبش السهروردي وهو من المتصوفة بشبهة الالحاد ولم يكلف خاطره محاكمته والاستماع اليه خشية ظلم بريء!!!

اللافت هو منح صلاح الدين اليهود بإيعاز من طبيبه اليهودي حق التملك والذي كان مسلوبا منهم بحكم العهدة العمرية وحق الاقامة ببيت المقدس وبناء مدارس وكنس لهم !!!سابقا بذلك

بلفور صاحب الوعد الشهير في التاريخ العربي الاسرائيلي!!! كما ان عقيدة صلاح الدين لم تكن محل اتفاق بين معاصريه فمنهم من هو قائل انه كان على الطريقة القادرية اي سني متصوف ومنهم من هو قائل انه كان اشعريا اي سنيا سلفيا ؟!!!وشتان بين الطريقين

ومن صلاح الدين السياسي والحاكم الي شخصية صلاح الدين القائد والفارس والذي استطاع انزال هزيمة كبيرة بالجيوش الصليبية في حطين حيث نجح في تعطيشهم وشطر جيوشهم الي قسمين ...الا ان صلاح الدين مني بهزيمة كبيره من ريتشارد قلب الاسد في ارسوف ..الا ان انقلابا علي ريتشارد من اخيه جون بإنجلترا وفي الوقت ذاته تهديدا لاح في الافق من نور الدين محمود والذي يزعم بعض المؤرخين انه خشي من استقلال صلاح الدين بمصر فقرر غزوها مما جعل من مسألة التفاوض والصلح امرا لا مفر منه لكلا الطرفين ريتشارد وصلاح الدين....ووقع الطرفين صلح الرملة ..ومن هذا الصلح نكشف عن وجها اخر لصلاح الدين وهو صلاح الدين المسالم ...

فالحاكم الذي طارد الشيعة في كل مكان ولم يرض بغير قتلهم كما قتل معارضيه بحجة الاتصال بالصليبين هو نفسه الذي سالم الصليبين وهو ذاته الذي دخل في علاقات ودية مع طائفة الحشاشين الباطنية وزعيمهم رشيد الدين سنان وهي طائفة من القتلة وقطاع الطرق والمجرمين ولهم علاقات وطيدة مع الصليبين والذين حاولوا اغتياله بينما كان يحاصر قلعة حلب وفشلوا كما استطاعوا التسلل الي معسكره اثناء حصار قلعة عزاز واستطاعوا اصابته لولا الخوذة الحديدية والدروع التي كان يرتديها صلاح الدين حالت دون اصابته بأصابات بالغة فحاول صلاح الدين الرد بحصارهم في قلعة مصياف دون جدوي لاستئصال شوكتهم فلجأ الي اتخاذ احتياطات امنية صارمة للحفاظ علي حياته منتهيا بمسالمتهم ..وفي مكيافيلية رائعة تضاف الي صلاح الدين رجل الدولة وتتناقض مع اخلاقيات الفارس المثالية استطاع استخدام الحشاشين في اغتيال كونراد مونفيرا ملك بيت المقدس حيث تخفوا في زي رهبان مسيحين وقتلوه !!!

نأتي الي مسألة اخيرة الا وهي فكرة الوحدة التي ما أن يأتي ذكرها الا وجاءت مقترنة بصلاح الدين ..والحقيقة انني بحثت في تاريخه عما يدعم هذه الفكرة دون أن اقف علي أثر لها فبوفاة نور الدين محمود تولي صلاح الدين الوصاية علي ابنه الصالح اسماعيل وأوجد لذلك مسوغا شرعيا بزواجه من عصمة الدين خاتون امرأة سيده السابق نور الدين وام خليفته ولم يكن

للصالح اسماعيل ايه صلاحيات او سلطات في ظل الوجود الطاغي لصلاح الدين فأقام بحلب حتي توفي في ريعان شبابه رافضا ان يتناول الخمر كعلاج وصفه له اطباؤه وبوفاته احكم صلاح الدين قبضته علي الشام بشكل كامل ومطلق...مشهد لن تخطئه في مئات القصص التي يحفل بها التاريخ الاسلامي فهل هذا هو تعريف الوحدة ؟!!وحتي نبرهن انه لم يكن صلاح الدين يعرف فعلا معني الوحدة بالمعني الذي ينشده المعاصرون الان من محبيه فقد قسم مملكته وكأنه تركة بين ابنائه واشقائه قبل وفاته بشكل مستقل علي نحو ينذر بوقوع الشقاق والشرر بينهم وهو ما حدث بالفعل فيما بعد ...اننا لا نريد ان نحاكم او نقلل من صلاح الدين كشخصية تاريخية لعبت دورا هاما ومؤثرا في التاريخ الاسلامي ولكنها لعبت هذا الدور بمفاهيم عصرها ومعطيات هذه الحقب القديمة .ما نريده ان نتخلص من ربقة اسقاط الملامح الوهمية لهذه الشخصية وغيرها علي عصرنا الحديث وتمني ظهوره يوما وكأنه المستقبل المشرق الذي ينتظرنا ..اننا الامة الوحيدة في هذا العالم التي تلتمس الخلاص من اوزارها بتمني ظهور رجالات من تاريخها الماضي وهذا اصل الداء ...فلو عاد صلاح الدين فهذا هو صلاح الدين كما شاهده معاصروه فهل سنطالبه باحترام حقوق الانسان والاعتراف بالآخر وحقه في ان يكون له رأيا مغايرا وان يكون منتصرا لفكرة تداول السلطة ونستعين بتجربته في بناء وحدة اسلامية ؟!!!بالطبع لا فهو ابن عصره وزمنه وزماننا مختلف لا يصنعه شخصا من عصور غابرة انقضي وانقضت ملابسات عصره اختلفنا او اتفقنا حولها.. ان ما يصنع واقعنا ومستقبلنا ان ننقلب علي فكرة الزعامة الواحدة والعقل الواحد والشخصية الواحدة المثالية التي لا يشوبها شائبة وان نبني واقعنا ومستقبلنا علي فكرة البناء الجماعي والفكر المشترك دون اقصاء.

المقال الرابع: الشهيد الحي

في تاريخ مصر حوادث لا تنسي فلقد كان بعضها الشرارة لإحداث تغييرات جذرية في الشأن السياسي المصري ومن هذه الحوادث البارزة حادثة مقتل سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام السير لي ستاك عام ١٩٢٤ حيث وصفها الزعيم سعد زغلول ورئيس الوزراء وقتها بأنها: أكبر الحوادث أثرا وأسواؤها شؤما فهجمت هذه النازلة على البلاد فأزعجتها وهزت أرجاءها هزا عنيفا وكنت أول المهزومين بهجومها وأول المتطيرين من شرها !!!!!...

حيث قام مجموعة من الجماعات السياسية المسلحة والتي كانت يعج بها المجتمع المصري آنذاك حيث كانت الرغبة ملحة في التخلص من احتلال انجليزي بغيظ جاثم علي الجسد المصري و هذه الجمعيات الوطنية المسلحة وبعضها كان تابعا لأحزاب وجماعات كانت شديدة الكثرة و التعقيد في تركيبتها واتصالاتها مما جعل مسألة تتبعها والوصول اليها مسألة صعبة في كثير من الاحيان وترتب علي هذا التنوع وغياب الزعامة الروحية الرشيدة أنماط متعددة من الزعامة فقد كان كل فرد من هذه الجماعات يعتبر نفسه زعيما حتي وان لم يتحلى بالقدر المناسب من الحنكة والقدرة والممارسة السياسية ..

كانت المجموعة التي اغتالت السيرلي ستاك مؤلفة من عدة شبان في مقتبل العمر أولهم عبد الفتاح عنايت الطالب بمدرسة الحقوق وكانت مهمته في العملية أعطاء اشارة البدء عند خروج السردار من مبني وزارة الحربية والثاني كان عبد الحميد عنايت الطالب بمدرسة المعلمين مرابطا عند شارع القصر العيني وكان موكلا اليه القاء قنبلة لتخويف المارة وتأمين الهروب اما محمود راشد فكان في السيارة المعدة للهرب بينما كان المنفذين ثلاثة هم ابراهيم موسي وعلي ابراهيم وراغب حسن..

كانت نتائج هذا الاغتيال وخيمة حيث اعتبر الجنرال اللنبي حادث السردار ثأرا ينبغي القصاص له بأقصى درجات الشدة والحزم فقاد مظاهرة عسكرية من خمسمائة جنديا من حملة الرماح حاصرت مجلس الوزراء و مقدما لسعد باشا زغلول انذارا شديد اللهجة بسرعة القبض علي المنفذين واقامة جنازة رسمية له يسير فيها الوزراء ورئيس الوزراء بالملابس الرسمية ودفع دية السردار وقدرها نصف مليون جنيه وانسحاب القوات المصرية من السودان وكانت هذه المظاهرة هي بروفة اولي لحادث ٤ فبراير ١٩٤٢الشهير والذي حوصر فيه الملك ذاته واعتداءا صارخا علي السيادة المصرية حيث كانت مصر قد حصلت وقتها علي استقلالها بموجب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وصدر دستور ١٩٢٣ .

كان سعد في موقف لا يحسد عليه وهو الذي اتي الي الوزارة بعد اول انتخابات ديموقراطية في تاريخ مصر واخرها!!!! فقال قولته الشهيرة: إن الرصاصات التي قتلت السردار هي رصاصات وجهت الي صدري أنا.. قبل سعد دفع دية السردار كما وجه بيانا للأمة ناشد فيه المصريين بأن كل من يعرف شيئا عليه ان يقدمه الي ادارة الامن العام وليعلم كل فرد أن هذه تعد عملا وطنيا وخدمة جليلة البلاد ويعلمون ان الالتجاء الي العنف والاجرام أكبر خيانة للوطن ولقضيته المقدسة!!!! ولاحظ سيدي القارئ بدقة كلمات زعيم الامة والتي تنفي بوضوح معرفة سعد زغلول بهذا الحادث قبل وقوعه وهو السياسي المخضرم الذي يعي أن مثل هذا الحادث قد يطيح بمستقبله السياسي الي غير رجعه خاصة وإذا علمنا أن المستهدف في الاساس كان الجنرال اللنبي ذاته ولكن الحراسة المشددة من حوله حالت دون تنفيذ المخطط واتجهت الانظار الي السيرلي ستاك كهدف أسهل في اصطياده مما يجعل استحالة معرفة سعد بهذا الحادث قبل وقوعه أمرا منطقيا تماما!!!

في هذه الخطوب لابد وأن نبحث عن الشرفاء من الوطن وهو الوصف الذي عادة ما تطلقه الانظمة على حلفائها من الانتهازين الحالمين بالمناصب والمحافظين عليها ايضا فيتباروا في صب اللعنات على الجناة الذين اودوا بحياة ستاك وعبثوا باستقرار الدولة المصرية ومنهم حشود من النواب ورجال الدين وحتى نقابة الممرضين المصرية ولك ان تتخيل ان نقابة التمريض انشئت في مصر عام ١٩٧٦ لتعرف كم الكيانات الوهمية وغير الوهمية التي كانت تتسابق لخطب ود الانجليز في مصابهم الفادح!!!! ...

رفض سعد باقي المطالب الانجليزية فأحتل الانجليز جمرك الاسكندرية ووضعوا ايديهم على ايراداته فتقدم سعد زغلول باستقالته والذي اعتبر حادث السردار حادثا مدبرا ضد وزارته لأنه الخاسر الوحيد منها وتولي احمد زيور تشكيل الحكومة والتي أصبح وزير الداخلية فيها اسماعيل صدقي ...

كانت ملابسات الحادث تدفع باتجاه القيد ضد مجهول حيث ان الحادث لم يترك خلفه دلائل كافيه لتحديد الجناة سوي سائق السيارة الاجرة التي استقلها الجناة حيث وجدوا ان ايراده زائد جنيها واحدا عن ايراده المفترض بحسب عداد السيارة وكان اكرامية من الجناة.. كما شهدت هذه الفترة حملة اعتقالات موسعة شملت عدد من نواب حزب الوفد أبرزهم محمود فهمي النقراشي

وعبد الرحمن فهمي وقد تمخض عن هذه الاعتقالات اعتراف أحد المعتقلين وهو محمود اسماعيل الموظف بوزارة الاوقاف والذي طلب مقابلة وزير الداخلية شخصيا!!!

لكن المفارقة التي قلبت الحادث رأسا علي عقب كانت خروج محمد نجيب الهيلباوي المدرس بالجمعية الخيرية الاسلامية والذي قبض عليه في حادثة محاولة اغتيال السلطان حسين كامل والذي قبل الحكم تحت الوصاية البريطانية فحكم عليه في البداية بالإعدام ثم خفف الحكم الي الاشغال الشاقة المؤبدة والطريف هو الطريقة التي تمكن بها البوليس من القبض علي الهلباوي حيث أشعل القنبلة التي القيت علي السلطان بفتيل سيجارته ونظرا لان السجائر كانت تصنع بالطلب فقد كان يكتب علي كل سيجاره الحروف الأولي من اسم صاحبها مما جعل مسألة الوصول اليه غاية في السهولة وذلك باستجواب صاحب مصنع السجائر!!!

ومع تولي وزارة سعد زغلول خرج بعفو الا انه خرج بغير الوجه الذي دخل به حيث بدلته سنوات السجن من وطني الي شخص اخر كاره للوطنيين والذين نسوه في سجنه كما وجد اغلب زملائه قد سبقوه في الترقية...

وتتضارب الروايات حول أما تجنيد الهلباوي وهو في السجن بواسطة مستر انجرام الانجليزي وسليم ذكي باشا الضابط وقتها وحكمدار العاصمة فيما بعد او أنه من بادر الي الذهاب الي المخابرات البريطانية وفي كل الاحوال فقد أختار الهلباوي ان يوجه سهام غضبه الي الحركة الوطنية وان يقبض المكافأة التي رصدتها الحكومة وقدرها عشرة الاف جنيه خاصة بعد مقابلته لمحمود فهمي النقراشي زميله السابق في الكفاح والذي أصبح يشغل وظيفة وكيل وزارة الخارجية في حكومة سعد وصب جام غضبه علي سعد ومتهما أياه أنه يكرهه لان أسمه علي أسم غريمه العتيد -قاصدا ابراهيم الهلباوي- !!!!!

وبحدس الهلباوي شعر ان الحادث لابد وان له صلة بشفيق منصور المحامي والوفدي البارز والذي نجح تحت مظلة الوفد مرتين وأصبح نائبا عن باب الشعرية وهو أحد الضالعين في حادث محاولة اغتيال السلطان والتي دخل في أعقابها الهلباوي السجن وبالفعل صدقه حدسه ففي مكتب شفيق التقي بصيد ثمين كان المفتاح لهذه القضية الغامضة...

فقد صادف في مكتب شفيق الاخوين عنايت وقد كان شقيقهما الاكبر محمود سجينا معه في نفس القضية ولكنه نفي الي مالطة ثم عاد الي القاهرة بأفراج صحي بعدما تدهورت صحته ثم لم ليبث ان توفي بعد فترة وجيزة ..بالطبع كان تواجد الشقيقان مثيرا لريبة الهلباوي ولكن لصغر

سنهما ودهاء الهلباوي استطاع الايقاع بهما ومعرفة كل شيء بل و أقناعهما بالهروب الي طرابلس ومعهما الاسلحة التي استخدمت في قتل السيرلي ستاك وفي طريقهما عبر القطار المتوجه من الاسكندرية الي مرسي مطروح استطاع البوليس القبض عليهما بمعاونة الهلباوي وقدم الجميع الي المحاكمة ...قبض الهلباوي الثمن وهو عشرة الاف جنيه ليكمل بهم تعليمه في اوروبا !!!!

كانت المحاكمة مثيره فقد أعترف الاخوان عنايت بشجاعة على دورهما في قتل ستاك بينما أنبري محاميهما في التأكيد ان الاخوين مرضي بجنون الوطنية لطلاق أبيهما من أمهما وزواجه بأخرى!!!!؟؟؟

أما محمود راشد فقد أنكر تماما صلته بالحادث وأنه لا يعرف حتى ذبح فرخه!!! وكذلك ابراهيم موسي والذي رفض الاعتراف ورفض أي مساعدة من زملائه لبناته الاربع...

اما شفيق منصور المحامي فقد ارتعدت فرائسه وصار لا يكف عن البكاء كما أدلي باعتراف كامل علي شعبتي القاهرة والاسكندرية المشاركتين في أحداث العنف والاغتيالات في هذه الفترة وحينما أدخل الي غرفة الاعدام راح يتوسل في مشهد انساني محزن: يا باشا عايز أشوف أهلي. يا باشا عايز اشوف أختي أنا في عرضك!!!

ومن تفاصيل الحادث الي الزعامة وسنتوقف عند الهلباوي الذي أصبح رمزا للخيانة في مصر والسؤال هل حينما لا يجد الزعيم المساندة والاعتراف بالجميل فيتحول للنقيض هل يتحمل الزعيم تبعة ذلك وحده؟!! ان الزعامة تتولد بقدرات ذاتية نابعة من ايمان الشخص بفكرة وبقضية تستحق التضحية والفداء هذه حقيقة لا يمكن انكارها فلربما قادته الزعامة الي فقدان حياته ثمنا لفكرته ولقد عبر سيد قطب عن هذا المسار بقوله (كلماتنا ستبقى ميتةً لا حراك فيها هامدةً أعراساً من الشموع، فإذا متنا من أجلها انتفضت وعاشت بين الأحياء) ولكن هناك أيضا عوامل خارجيه تسير جنبا الي جنب هذه العوامل الداخلية الذاتية تدعم فكرة الزعامة وتبقيها حية وتبعث الامل مجددا كلما كانت الظروف عصيبة من حول الزعيم ...

فالاعتراف بالجميل وتخليد الذكري واحياءها دوما هي دروس لم نستوعبها في عالمنا العربي فيما وعاها الفكر الغربي حولنا وحافظ عليها فالزعيم الفعلي ونعني بالزعامة الفعلية الزعامة التي تصنع الاحداث و تنخرط في المشهد علي الارض وتتجشم المخاطر في التطبيق وليست الزعامة الخطابية التي تمارس دورها عن بعد والفرق شاسع فالزعامة الفعلية تبذل الحياة لتهب

من حولها الحرية وهي خطوة ليست ابدا بالسهلة ومع ذلك لا يلتفت لها أحد ولا يتذكرها أحد ولا يعترف بجميلها أحد فيما يعتلي الانتهازيون المقدمة حاصدين للمناصب وصنوف التكريم...والهلباوي وغيره ممن يمتلأ بهم أوطاننا كانوا ضحية غياب المردود المجتمعي لخدماتهم الجليلة فبعضهم أختار الانزواء و العزلة وبعضهم انقلب علي كل المعاني الوطنية المخلصة داخله وصار يلعن كل القيم الوطنية ولقد كان الشاعر أحمد مطر رائعا حينما نقل لنا أبعاد هذه الصورة عبر أبيات بديعة فيقول :

أبي الوطن

أمي الوطن

رائدنا حب الوطن

نموت كي يحيا الوطن

يا سيدي انفلقت حتى لم يعد

للفلق في رأسي وطن

ولم يعد لدى الوطن

من وطن يؤويه في هذا الوطن

أي وطن؟

الوطن المنفي..

أم الوطن؟!

أم الرهين الممتهن؟

أم سجننا المسجون خارج الزمن؟!

نعود الي المصير فقد حكم بالإعدام علي جميع المتهمين في القضية فيما خفف الحكم علي عبد الفتاح عنايت الي الاشغال الشاقة المؤبدة بأمر ملكي نظرا لحداثة سنه ولأنه لم يشترك في اطلاق النار .كانت سنوات قاسية عليه حصل خلالها علي شهادة عليا في القانون بتشجيع من

الدكتور محجوب ثابت طبيب اول جامعة فؤاد الاول والذي سعي في تسهيل كافة اجراءاته ولكنه خرج من السجن عام 1944 بعدما امضي تسعة عشر عاما ودون تدخل أو مطالبات شعبيه او حزبية بأطلاقه ..خرج يحمل بضع أوراق يحكي فيها قصته وقصص العديد من الوطنيين الذين ضحوا بحياتهم في صمت دون مقابل ..

المقال الخامس: الجسد المفقود

حينما نضع تعريفا للزعيم فهو القائد بشخصيته الجديرة بالثقة والقادرة على تجسيد القيم البناءة واعلاء الرؤي بعيدا عن المثالية المفرطة المستحيلة والأوهام الزائفة فالزعامة حقيقة ملموسة قوامها القدرة على تحريك الراكد وتقدم الصفوف وأداره الأزمة وتحمل المخاطر ونتائجها ولأن الظليل هو النفس و النفس دائمة التقلب والتحول ونقطة التحول نحو الزعامة حينما يطوع الأنسان ظليله.

وفي لحظات الاتساق مع النفس يكون أخطر قرارات النفس وأجلها حينما تقرر أن تغادر الجسد فداءا وقربانا أملا وطمعا في مستقبل أفضل لأبناء جلدتها.

قرار صعب يحس معه المرء أن وطنه يستحق هذه التضحية فلا يبالي ببذل الغالي والرخيص ولكنه أحيانا يعز على المرء أن يمثل بجسده مثلما كان الحال مع عبد الله بن الزبير أثناء حصاره علي يد الحجاج حينما شكا لامه السيدة أسماء بنت أبي بكر خوفه من أن يمثلوا بجسده بعد قتله فقالت له في درس تربوي رائع: لا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها ...ولكن ماذا عمن قدم الزعيم ذاته وجسده فداءا لهم؟!!

أن النفس لا تفني بل تبقي محلقة بجناحيها حزينة علي ما حل بالجسد حينما يكون جزاء الوفاء والفداء هو النكران والنسيان..

زعيمنا اليوم وصفه عبد الرحمن الجبرتي صاحب كتاب عجائب الاثار في التراجم والاخبار بأنه من سفلة السفلة أهوج أحمق ومتدنس بالخطايا! أنه سليمان محمد أمين الحلبي أحد خريجي الازهر الشريف وصاحب أول عملية اغتيال في التاريخ المصري الحديث

ولنبدأ الحكاية من البداية..

كان الجنرال كليبر صاري عسكر الفرنساوية كما كان يسمي في هذا العصر خليفة لبونابرت علي رأس الحملة الفرنسية المرابطة في مصر والتي بدأت تواجه عواصف شديدة من الإخفاقات علي الصعيد العسكري أبرزها تدمير الاسطول الفرنسي في أبوقير و لكن أكثر الإخفاقات كانت علي الصعيد السياسي وفشل الحملة في استقطاب المصريين الي مشروعهم الإصلاحي وتصاعدت مقاومة المشايخ والأهالي ممثلة في ثورة القاهرة الأولي وما أعقبها من اقتحام الفرنسيين بخيولهم للأزهر الشريف مما استنفر الأحرار من العالم الاسلامي ضد هذا الاعتداء

الغاشم علي حرمة الجامع والجامعة ثم حملة اعتقالات طالت المشايخ الذين كانوا يمثلون زمرة الفئة التنويرية المثقفة في هذا الزمان ومع مغادرة بونابرت لفرنسا موقنا فشل مشروعه الشرق أوسطي كان للتاريخ موعد مع أحداث فارقة مرت علي مصر باعتلاء كليبر لسلم القيادة أولها ما عرف بثورة القاهرة الثانية ولكن كليبر كان معروف عنه الشدة والقسوة والحزم في مواجهة هذه الخطوب فأخمد الثورة بشراسه وضرب واحرق حي بولاق معقل الثورة بالقنابل كما أوقع الهزيمة بالعثمانيين الساعيين للعودة الي حكم مصر واجبرهم علي توقيع معاهدة العريش ...

وبعدما استتب الأمر لكليبر أو هكذا ظن أن الامور تسير هادئة فاذا به في رحلة نحو النهاية ففي صباح يوم الاغتيال كان كليبر يشاهد عرضا عسكريا لكتيبة من الأروام انضمت للجيش الفرنسي مؤخرا بجزيرة الروضة ، ثم عاد بصحبة المهندس المعماري "بروتان" لمتابعة ترميم مقر أقامته في قصر محمد بك الألفي في الأزبكية والذي أتخذه مقرا لقيادته وقد أضير بشدة خلال ثورة القاهرة الثانية، وبعد تناول الغذاء في دار الجنرال "داماس"، رئيس الأركان، مع مجموعة من القادة وأعضاء المجمع العلمي عادا ادراجهما مرة اخري الي مقر القيادة وبينما يتجولان في الحديقة خرج عليهما شاب أقترب من كليبر مستجديا أياه فمد كليبر له يده دون ريبة ليعاجله الشاب وهو سليمان الحلبي بطعنة في قلبه كانت القاضية حاول بروتان الامساك به فأرداه صريعا علي الارض بست طعنات ...راود الحلبي الخوف من أن يبقي الجنرال علي قيد الحياة فعاد اليه مسددا ثلاث طعنات أخري للإجهاز الكامل عليه .

بعد مضي ساعة واحدة من الاغتيال عثر الفرنسيون علي سليمان مختبئا خلف جدار في حديقة مجاورة وبجواره سلاح الجريمة مدفونا وعليه أثار دماء وبتعرف بروتان عليه وكذلك بعض معاوني كليبر ممن أقروا بمشاهدة سليمان لعدة مرات محاولا الاقتراب من كليبر ...

تم التحقيق مع سليمان ومع قسوة التعذيب جاء اعترافه الشهير بأن الباعث وراء قتله لكليبر هو تحريض ضابط عثماني يدعي أحمد أغا كان قد التقاه للتوسط لديه في تخفيف الظلم الواقع على والده تاجر السمن وزيت الزيتون من والي حلب ابراهيم باشا فطلب منه قتل كليبر في المقابل**!!!** وهي الرواية التي تفتقد منطقية الدافع للجاني فسليمان كان شابا متعلما وقتل كبير الفرنسيين ليس بالأمر السهل كما أن وقع الحدث ليس بالأمر الذي يمر مرور الكرام من قوة غاشمة كالفرنسيين وقد يكون الثمن هو حياته وهو المصير المحتوم...

فهل يدفع أنسان متعلم بنفسه من أجل هدف وقتي ساذج مثل تخفيف بعض الضرائب عن والده خاصة وأن الضامن هم العثمانيون وما أدراك ما العثمانيون في احترام الكلمة والوعود!!!؟ كما أن سليمان أزهريا ومشايخ الازهر في هذا الوقت لم يكونوا أبدا من دعاة العودة الي الحكم العثماني فهو بمثابة استبدال ظالم بظالم أخر حتى ولو كانت العباءة أسلامية فالممارسات معروفة والتاريخ أمامهم حافل ...لكن وللأسف تبقي رواية الفرنسيين هي الوحيدة والمحتل بطبيعة الحال ليس أبدا من مصلحته صناعة الابطال الذين يبقون في ذاكرة شعوبهم على الدوام لذا فالمصلحة الفرنسية تقتضي قلب الحقائق وتشويه البطولة وتحويلها الي أرهاب وطائفية واصطناع للأجندات الخارجية ...

كانت تفاصيل المحاكمة تنشر باللغات العربية والفرنسية والتركية على الرأي العام المصري ولأول مرة في تاريخهم يطلعوا على محاكمة علنية موثقة تسبق توقيع العقاب وهو ما عبر عنه عبد الرحمن الجبرتي بانبهار واضح في كتابه عجائب الاثار في التراجم والأخبار ثم عاد وحذفه في كتابه مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس بعد عودة العثمانيين كنوع من التزلف والموالاة للباب العالي والمحتل الجديد وللنفاق تاريخ عريق في مصر!!! ...

الغريب هو اكتشاف الجبرتي وغيره من الطبقة المتعلمة لأسلوب المحاكمات العصرية من عدم التعجيل بقتل المتهم وسؤاله أذا كان مذنبا أم لا بل والانتصار لحق المتهم في تقديم دفوعه وترتيب من يدافع عنه مع أن الرسالة الاسلامية عبرت بوضوح عن حق المتهم في الدفاع عن نفسه حيث حمل القرآن الكريم أول محاكمة في تاريخ الكون وهي محاكمة الله عز وجل لإبليس حينما رفض الانصياع لأوامر ربه.

قال تعالي: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (80) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)

فشاء الله الا يوقع عقوبته بأحد من خلقه قبل أن يتيح له الفرصة للدفاع وتقديم حجته وعلي هذا المنوال كانت مشيئة الله في أعلاء قيمة خلقه في الارض والحض علي العدل والقسطاس المستقيم وفي يوم القيامة مشاهد عدة من المحاكمات ومساءلة الانسان وحقه في الرد وفي طلب الشفاعة ...ولكن أرادة الاستبداد الذي ساد الحكم المملوكي والعثماني أقصت هذه المنحة الربانية فكانت المحاكمات عبارة عن ضرب للرقاب والإجهاز علي الناس دون استماع لملابسات جرائمهم أو حتي التحري إن كانوا مذنبين من الأساس خشية معاقبة مظلوم وأصبح الناس علي قدم وساق في المساواة في الظلم وهذا كان قمة العدل في هذه العصور المظلمة !!! ...

وعلي الرغم من حضارية الأطار الشكلي للمحاكمة الا أن ما أسفرت عنه المحاكمة من عقاب كان بربريا حيث حكم علي سليمان بوضعه من شرجه على خازوق حتى الموت وحرق يده اليمني وترك جثته لتنهشها الطيور وضرب أعناق ثلاثة ممن علموا بتدبيره ووضع رؤوسهم على نبابيت!!! علي أن يكون ضرب أعناق الثلاثة أمام سليمان امعانا في تدميره نفسيا قبل تعذيبه الجسدي بشكل شنيع على الخازوق لمدة أربع ساعات مرددا الشهادتين وتولي تنفيذ الحكم بارتليمي محافظ القاهرة اليوناني وبعدها أعطاه أحد الجنود الفرنسيين شربة ماء وضعت نهاية لعذابه بموت رحيم علي يد محتل آثم نحتفل بذكراه وبما أرساه من حضارة!!!!!

لكن ما يسترعي الانتباه هو ما كتبه المؤرخون المستشرقون عن بسالة وشجاعة سليمان الحلبي في مواجهة الموت فيقول لوتسكي:

" وقد قابل سليمان الموت ببسالة، إذ وضع يده بجرأة في النار الملتهبة، ولم ينبس ببنت شفة حينما كانت تحترق، كما كان باسلاً طيلة الساعات الأربع والنصف الذي قضى من بعدها نحبه وهو مخوزق ".

نجح الطبيب الفرنسي لاريه وهو أحد أعضاء المجمع العلمي في الحصول على جمجمة سليمان الحلبي وباقي جثمانه لينتهي بها المطاف في متحف الانسان بقصر شايوه في باريس مذيلا بلقب المجرم وبجواره جمجمة ديكارت مذيلة بالعبقري!!

السؤال الفارق ماذا فعلنا لبطلنا؟! وماذا فعل الفرنسيون لبطلهم؟!

الي اليوم تنطلق من سوريا منشأ سليمان دعوات باستعادة جمجمته ورفاته ليدفن في مسقط رأسه بحلب في جنازة تليق بقدره وبما قدمه لأمته وبشكل يحفظ لجسده كرامته وقداسته.. جميع هذه الدعوات من المثقفين السوريين لم تجد ظهيرا مصريا حيث التزمت مصر الصمت مع احتفالات

صاخبة للمثقفين المصريين بالموروث الفكري والثقافي للاحتلال الفرنسي لها!!! ...ومع ثورة 25 يناير المجيدة تعالت الأصوات من قلب التحرير بعودة جمجمة ورفات سليمان فالرجل الذي خلص مصر من مجرم حرب هو كليبر يستحق تكريما أكثر من مجرد أطلاق أسمه على أحد الشوارع بمصر ...

كما لم يهتم الباب العالي الرمز الاسلامي للوحدة وحامي الحمي في العصور الغابرة -وقد دخل مصر بصحبة الانجليز عام ١٨٠١ بمصير جثمان سليمان الحلبي وهو رجلا وان لم يكن قد قتل كليبر بأراده عثمانية مباشرة فعلي الاقل هو رمز يستحق الاشادة!!!

بينما أهتم الفرنسيون ببطلهم المغدور كليبر حيث حملوا رفاته من مصر أثناء جلاءهم عنها وفي عهد لويس الثامن عشر تم دفنه وسط مراسم مهيبة بمسقط رأسه بستراسبورغ وأقيم له تمثال من البرونز أحياء لذكراه كما نقش اسمه على قوس النصر وسط القادة التاريخيين...

حقا شتان ما بين قيمة التضحية على الوجهتين فالأولي تجاهل ونسيان ونكران والثانية تظليل وفخر واجلال...

المقال السادس: مغامرات الملك

في بلادنا لا يوجد فيصل أحيانا بين أن تكون ملكا وأن تكون زعيما فمادام الملك مستمر في حكمه فالزعامة قرينه ولو كانت مملكته لا تتعدي بضع سنتيمترات وكيف لا ويوجد أجهزة أعلامية لا تتوقف عن الإشادة به بسبب وبدون..

ولكن ملكنا في هذه الحلقة كان يملك ملكا مترامیا ضم مصر والسودان فحاول أن يكون زعيما بحق وليس من قبيل التباهي الاعلامي الواهي المرتبط بحياة الحاكم ...ملكنا اليوم هو الملك فاروق الأول والذي تولي الحكم عام 1937 خلفا لوالده الملك فؤاد الرجل الصارم وكان لا يزال عمره السابعة عشر من عمره فيعود فاروق المتوج على العرش إلى بلاده على باخرة «النيل» قاطعًا دراسته بكلية «ووليتش» العسكرية في بريطانيا.

ونظرا لعدم بلوغ «فاروق» السن القانونية، فقد تشكل مجلس للوصاية على العرش، وكان برئاسة ابن عمه الأمير محمد علي بن توفيق، وعضوية محمد شريف صبري باشا، وعزيز عزت باشا، وكان من المقرر أن يستمر هذا المجلس لعام وتسعة أشهر. وحتى تقطع والدته الملكة نازلي الطريق أمام مطامع الأمير محمد علي المدعوم من السفير البريطاني السير مايلز لامبسون نظرا لطول فترة الوصاية وخشيتها من ضياع الحكم من ابنها فنجحت نازلي وبتأييد السياسي المخضرم علي باشا ماهر في استصدار فتوي شرعية من شيخ الأزهر مصطفي المراغي بأن «عُمر الملك المسلم لابد أن يُحتسب بالتقويم الهجري لا الميلادي»، وبموجب ذلك بلغ فاروق سن الرشد في يوليو 1937. ولأن العهود لا تسير على نفس الوتيرة فعلي ماهر ذاته هو نفسه الذي اقنع فاروق فيما بعد في توقيع ورقة التنازل عن عرشه بعد حركة عام 1952 كما أن المراغي دب الخلاف بينه وبين فاروق حينما رفض أصدار فتوي بتحريم زواج فريدة مطلقته ولكنها لعبة السياسة والحكم واجادة التلون لدي بعض النخب السياسية والدينية.

كان فاروق متميزا عن أسرة محمد علي باشا في كونه الوحيد من ورثة العرش الذي كان له أصول مصرية فوالدته نازلي ابنة عبد الرحيم باشا صبري وهي أسرة وفدية عريقة وكانت مخاطبته للمصريين لأول مرة باللغة العربية سابقة في التاريخ المصري الحديث حيث كان حكامه السابقين كانت لغتهم الرسمية هي التركية ولغة قصورهم الفرنسية!! بينما لغة الشعب

الذي يحكموه غائبة. كما أعجبه فجأة لحية جده الخديو اسماعيل فقرر أن يلتحي!!! ليصبح الملك الزاهد في نظر رعيته.

كان يداعب فاروق منذ البداية حلم أبيه في أن تكون له زعامة العالم العربي والإسلامي والتي انتهت بسقوط الخلافة العثمانية عام 1922 ولكن كتاب الشيخ علي عبد الرازق الاسلام وأصول الحكم والمعركة التي ثارت حوله أدت الي تقويض حلم فؤاد حيث أشار عبد الرازق في كتابه الشهير أن النبي لم يعيّن في البلاد التي فتحها ولاة لإدارة شؤونها، وأن معارضة المسلمين للخلافة "نشأت إذ نشأت الخلافة نفسها، وبقيت ببقائها".

كان فاروق يطمح الي احياء هذا الحلم منذ بداية حكمه فسعي الي عمل مراسم تتويج أسطورية داخل القلعة على طريقة العصور الوسطي وأن يبايعه الناس كخليفة للمسلمين، ويتسلم التاج من شيخ الأزهر ويحمل سيف جده محمد علي باشا، ثم يدعو له المشايخ الدعاء الخاص بالخلفاء العباسيين وسلاطين آل عثمان له. وأن تقام هذه المراسم على مرأي ومسمع من زعماء العالم وأن يكون الحفل في يوم الخميس، وفي اليوم التالي الجمعة يخطب المراغي خطبة الجمعة ثم يصلي الملك إمامًا بالمسلمين في الجامع الأزهر. واستباقا لأحلام الملك صرح «المراغي» بأن (الله يبعث كل مائة عام للأمة الإسلامية رجلًا يُصلح دينها ويجدد عقائدها ويوحّد صفوفها، وفاروق هو المختار ليكون رجل المائة عام المقبلة).

أطاح بأحلام الملك الأسطورية رفض مصطفي النحاس باشا زعيم الاغلبية ورئيس الوزراء آنذاك والذي صمم أن يكون التنصيب في البرلمان وهو ما وسع الهوة بين الملك والوفد ...سرعان ما تعلم فاروق -الفتي صغير السن وقليل التجربة والمعرفة بالحكم والذي لم يكن معنيا بشئون الحكم في عهد والده بأكثر من لقب أمير الصعيد- علي يدي علي ماهر باشا الثعلب السياسي المخضرم لعبة السياسة والتلاعب بالوزارات فأقال فاروق حكومة النحاس عام 1938 وألف حكومة برئاسة علي باشا ماهر وبدأ ماهر باشا يقنع فاروق أن الطريق نحو الزعامة يكون بتزويج اخواته البنات من عدد من ملوك وامراء العالم العربي والاسلامي وكانت البداية مع زواج الاميرة فوزية ذات الثقافة والملامح الارستقراطية الجميلة من شاه ايران محمد رضا بهلوي وكانت ايران آنذاك دولة في مهدها لم تصل الي الحداثة مثلما كانت مصر في ذلك العهد وسرعان ما انتهي هذا الزواج الذي لم يسفر عن تحالف سياسي ملموس الي الطلاق.

حاول فاروق أن يسير علي خطي ابن عمه الخديو السابق عباس حلمي الثاني في اكتساب الزعامة الشعبية في مصر عبر العداء للإنجليز والتقرب من النخب الوطنية منتهجا خطا مختلفا بعض الشيء وهو محاولة الاقتراب من الالمان وكان مسرح عمليات الحرب العالمية الثانية ليس ببعيد عن مصر وجرت العديد من المحاولات للاتصال بالألمان ومنها أرسال بعض الصور والخرائط عن مواقع القوات البريطانية الي الالمان عبر طيار مصري هو أحمد سعودي الا أن الطائرة الانجليزية الصنع والتي كانت تقله تم ضربها عبر سلاح الجو الالماني قبل هبوطها بالخطأ وضاعت الفرصة الثمينة ثم محاولة تهريب الفريق عزيز المصري رئيس الاركان المصري لمساندة ثورة رشيد الكيلاني ضد الانجليز في العراق ثم قضية حكمت فهمي الراقصة المصرية والجاسوسين الالمانيين ابلر وساندي واللذين وقعا في قبضة الانجليز عبر فتاتين من فتيات الهوي اليهود شكا في امرهما وهما يغنيان تحت تأثير الخمر نشيد المانيا فوق الجميع !!!

هل كان فاروق يعلم بهذه المحاولات وهل ساعد فيها؟ من الصعب تحديد ذلك نظرا لتعدد الروايات وتضاربها حول هذه المحاولات وبعضها كان الشاهد عليه مذاكرات الرئيس السادات والتي كتبها مرات عديدة وبعناوين مختلفة وروايات بعضها متناقض واستفاض فيها في اسباغ ألوان من البطولة اليه عبر مراحل مختلفة من حياته لا يوجد عليها شاهد غيره!!

الا أن المتفق عليه أن فاروق حاول الاتصال بهتلر نفسه عبر برقية الي السفير المصري بأيران يوسف ذو الفقار باشا (والد زوجته الملكة فريدة) ورصدتها المخابرات البريطانية ...

كان الرجل الثاني في حياة فاروق هو أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي الشاب المثقف الارستقراطي مكتشف الواحات وصاحب أول محاولة للطيران في مصر ذو الجذور الازهرية والذي كان يمتلك مكيافيلية عالية وقد التحق بجامعة اكسفورد بلندن بوساطة اللورد ملنر وزير المستعمرات وصاحب اللجنة الشهيرة في التحقيق في اسباب ثورة 1919!!! استطاع حسنين الاستحواذ علي أم فاروق الملكة الطروب نازلي والتي أوجعها قسوة وغيرة زوجها فؤاد وحبسه أياها بواسطة الخدم وأدمي قلبها منعها من رؤية ابنها فاروق لفترة طويلة وقد وصفتها الصحفية الأمريكية جريس هوستون أنها عصفور في قفص من ذهب!! وتم الزواج بين حسنين ونازلي عرفيا دون معرفة فاروق في البداية.

لم تكن مغامرات الملك في الاتصال بالألمان بالإضافة الي كثرة حاشيته من الالمان والايطاليين بخافية على الانجليز في هذا الخطب وقوات روميل بالعلمين تقترب من الاسكندرية فطلب السير مايلز لامبسون السفير البريطاني من فاروق تشكيل حكومة برئاسة النحاس باشا حاول فاروق المراوغة وطرح بدائل لأسماء أخري وهو الامر الذي لم يعجب لامبسون فوجه انذاره الاخير للملك عبر حسنين باشا بأنه ان لم يسمع قبل السادسة مساءا أن الملك استدعي النحاس لتشكيل الوزارة فليتحمل الملك تبعة ذلك..

وكانت الطامة حينما حاصرت دبابات لامبسون القصر الملكي في عابدين يوم 4 فبراير عام 1942 ليقتحم القصر بصحبة الجنرال ستون قائد القوات البريطانية وينحي الحاجب بأنه يعرف طريقه ... حاول فاروق والذي بدا عليه الاضطراب الشديد تلطيف الاجواء مع لامبسون -والذي كان ينعته دوما في تقاريره بالصبي- لكن الاخير أعتبر ان الوقت قد مضي وان علي فاروق توقيع وثيقة التنازل عن حكمه وكانت خطة الانجليز تولية الامير محمد علي بن توفيق ولي العهد خلفا لفاروق.. كاد فاروق أن يوقع لولا رجاء أحمد باشا حسنين للامبسون بمنحه فرصة أخري.

وفي عجالة استدعي فاروق النحاس لتشكيل الوزارة ...اعتبر حسنين باشا أن ما تم كان أهانة شخصية له فقرر الانتقام على طريقة الكونت دي مونت كريستو في أمير الانتقام!!! من أقطاب من اعتبرهم المسؤولون عن هذا الحادث وهم النحاس المستفيد الاول من هذا الحادث ولامبسون السفير البريطاني واستهل انتقامه بالنحاس ووجه له أكبر طعنة عبر صديق عمره الزعيم الوفدي البارز والخطيب المرموق مكرم باشا عبيد حيث استطاع استمالته ليتحول الصديق الي عدو ويصدر كتابه الشهير الكتاب الاسود والذي هاجم فيه صديق عمره النحاس واتهمه بالفساد المالي ونجحت الخطة وتم أقاله وزارة النحاس على أثر هذه الاتهامات ...

استطاع أحمد حسنين باشا من خلال اتباع سياسة النفس الطويل أن ينتقم من لامبسون عبر صديقه في لعبة الشيش وزميله السابق في اكسفورد عبد الفتاح باشا عمرو والذي كان على اتصالات ممتازة مع أقطاب حكومة العمال وحينما حطت الحرب العالمية الثانية اوزارها وخرج ونستون تشرشل وحكومته المحافظة من السباق الانتخابي ونجحت حكومة العمال في المقابل كانت الفرصة مواتية لاتصالات عبد الفتاح باشا والسعي لتعيين معتمد بريطاني جديد في مصر وهو ما قد تم..

بوفاة أحمد حسنين باشا في حادث سيارة مع أحد عربات الجيش الانجليزي عام 1946 كان بمثابة تحول كبير في حياة فاروق اذ انخرطت أمه نازلي في علاقات غرامية سببت ليه الكثير من الحرج على المستوي الدبلوماسي والشعبي كما كان الأثر الذي تركه حادث 4 فبراير قد أحدث تصدعا داخله ...

كان الرجل الثالث في حياة فاروق هو الدكتور يوسف رشاد والذي التقاه لأول مرة في حادث القصاصين عام 1943 حيث تعرض فاروق لحادث تصادم كاد أن يودي بحياته.. استطاع يوسف رشاد ان يلبي رغبات فاروق الطائشة في مزيد من تصفية حسابات الماضي مع النحاس باشا ولكن هذه المرة عبر اسلوب جديد وهو اسلوب القتل ... فشكل ما عرف بالحرس الحديدي من الضباط من صفوف الجيش وكان منهم الرئيس الرحل أنور السادات.. كما كانت زوجة يوسف رشاد السيدة ناهد رشاد لها دورا بارزا داخل القصر..

كانت مهمة الحرس الحديدي تصفية خصوم الملك ومنهم النحاس الا أن مسألة اغتيال النحاس منيت بالفشل عدة مرات فانتقلت الدائرة الي مهندس الاتصال الوفدي مع الانجليز في حادث 4 فبراير وهو وزير المالية أمين عثمان حيث تم اغتياله عبر مجموعة حسين توفيق وكانت القضية الشهيرة التي ضمت حسين توفيق جنبا الي جنب مع انور السادات ... لكن الملك لم يكن بالذي يترك رجاله ليلاقوا الموت في حكم شبه بات في قضية كاملة الاركان من حيث القتل العمد والترصد ففجأة تتعرض أوراق القضية للسرقة ويتم تهريب حسين توفيق الي سوريا وفي دمشق استمر في نشاطه حيث هاجم المعبد اليهودي هناك!!!!

لقد كان فاروق مثالا انسانيا للصراع بين شخصية الملك وما تفرضه من التزامات وشخصية الشاب بجموحه وتهوره وشخصية الزعيم التي تحاول أن تفرض نفسها وسط ظروف دوليه استثنائية تفرض تحولات جذرية ومحيط عائلي غير مستقر قتلت هذا الحلم داخله كل هذا رسم الطريق لنهاية فاروق بشخصياته الثلاث حيث تتسارع السنون ويتحول الجيش المحب لفاروق بعد حادث 4 فبراير والذي كان على استعداد للفداء في سبيله الي ساخط عليه ...لتقوم حركة 23 يوليو 1952

المقال السابع: المملوك الأخير

في العهود الماضية إلى الأفول عادة ما تكون هناك نهايات محتومة فهي ثمرة سنوات عجاف من المعاناة والمرارة لابد وأن تطوي صفحاتها وفي ثنايا هذه النهايات تطل علينا شخصيات فارقة تمثل حيودا عن كل مضي من سلبيات حاملة لنا معان البطولة واشراقة الامل في مستقبل أفضل ولكن أحيانا يكون مجيئها والوقت قد مضي ولم يعد سبيل للإصلاح ومن هذه الشخصيات الأمير الشاب طومان باي.

مع اعتلاء السلطان سليم الأول دست حكم الدولة العثمانية نشب الصراع بينه- بوصفه زعيما للمسلمين السنة- وبين الدولة الصفوية الشيعية وعلى رأسها الشاه إسماعيل، حيث انتهي الصراع باستيلاء سليم علي عاصمة الصفويين (تبريز) وهروب الشاه من عاصمته وفي خضم هذه المعارك مع الصفويين حاول السلطان سليم استمالة قنصوة الغوري سلطان مصر ليكون عضدا له في هذه المواجهة إلا أن الغوري اتخذ موقف المتفرج حتى النهاية.. بيد أن سرعان ما تعاقبت الحوادث بشكل ينذر بأن هناك مواجهة مرتقبة للعثمانيين مع المماليك وذلك باستيلاء سليم علي إمارة دلغادر الواقعة تحت سيادة المماليك وبذلك أصبح العثمانيون على مشارف الأراضي المملوكية في الشام.

سارع السلطان الغوري بتجهيز جيشه والخروج به إلى حلب بالشام في عام 1516م وبصحبته الخليفة المتوكل علي الله (كان يمثل الخلافة العباسية الأسمية في مصر) والقضاة الأربعة، واستبق الدخول في مواجهة مع سليم الاول بإرساله رسولٍ إلى سليم مؤكدا رغبته بالصلح وعدم الحرب، فرفض سليم و أساء وفادته وقال للرسول: "قل لأُستاذك يلاقيني على مرج دابق" وهي منطقة داخل الأراضي الشامية الخاضعة للمماليك و كشفت الحرب عن ساقها عند مرج دابق غير أن خيانة بعض القادة للغوري مثل : (خاير بك والذي أصبح حاكما علي مصر بعد ذلك في ظل الحكم العثماني - الخواجا إبراهيم السمرقندي والخواجا يونس العادلي والعجمي الشنقشي وهم من أخصاء الغوري - جان بردي الغزالي والذي أصبح حاكما لدمشق تحت الحكم العثماني) أدي الي هُزيمة الجيش المملوكي بقيادة الغوري والذي لقي حتفه تحت سنابك الخيل العثمانية ولم يعثر له علي جثمان وأسر الخليفة المتوكل علي الله والذي حمله سليم الأول معه حيث تنازل له عن الخلافة في مراسم جرت في آيا صوفيا لتنتقل الخلافة بصورة رسمية من العباسيين الي العثمانيين ودخل سليم الأول حلب وفي أول صلاة جمعة في المسجد الكبير هناك تلقب بخادم الحرميين الشريفين .

كان الغوري قبيل مغادرته لمصر قد عين طومان باي نائبا للغيبة ومع مقتل السلطان الغوري كان لابد من وحدة الصف فأجتمع الأمراء المماليك علي استخلاف طومان باي ليكون سلطانا لمصر –متجاهلين محمد ابن السلطان الغوري الراحل- إلا أنه تمنع ورفض المنصب لإدراكه صعوبة الخطب مع انقسام المماليك ولم يقبل إلا بعد أن حضر إليه الشيخ أبو السعود الجارحي أحد كبار المتصوفة في عصره وتمت البيعة عند الشيخ في كوم الجارح حيث حلف الامراء علي طاعة طومان باي وعدم ظلم الرعية مرة أخري ولقد كان الشيخ علي القدر المطلوب من المسؤولية الملقاة علي عاتقه في ظرف تاريخي كهذا فخاطب الامراء في شيء من الحسم قائلا: إن الله ما كسركم وذلكم وسلط عليكم ابن عثمان الا بدعاء الخلق عليكم في البر والبحر فقال الامراء :تبنا إلى الله عن الظلم من اليوم.

وتعتبر هذه البيعة سابقة تاريخية هي الأولي من نوعها التي يشارك فيها القادة الدينيون في اختيار السلطان والتي كانت حكرا على المماليك ثم على الباب العالي بعد ذلك كما حصل طومان باي على البيعة من المستمسك بالله والد الخليفة العباسي المحتجز لدي سليم الأول**!!!**

قاد طومان باي حركة تصحيحية فرفض فرض ضرائب جديدة لتمويل المعركة المنتظرة مع العثمانيين على رغم من كون خزائن الدولة فارغة على عروشها، فضلا عن رفضه مصادرة أموال الاوقاف واعتبر ذلك من المظالم التي لا يقبل ان تحدث في حكمه. كما قضي على مراكز القوي وأعمدة النظام السابق وفي مقدمتهم الزيني بركات المحتسب والذي بلغت درجة ولائه للغوري السلطان السابق أنه لم يتوان عن تعطيش سكان القاهرة لأربعة أيام متتالية من أجل توفير السقاية لمولاه**!!** ومع تولي طومان باي انحسر نفوذ الزيني بركات إلى حد كبير وكانت القشة التي قصمت تواجده على الساحة المصرية بشكل كامل حينما التجأ دباغا ظلمه الزيني بركات إلى الشيخ ابي السعود الجارحي فاستدعي بركات وقال له: يا كلب كم تظلم المسلمين وأمر بكشف رأس بركات بن موسي وضربه بالنعال.

يبدو أن نجاح سليم في أحكام سيطرته على الشام وهزيمة المماليك قد أغراه في إخضاع مصر لحكمه دون قتال أضافة إلى خشيته من استغلال الصفويين لغيابه في العودة لأملاكهم مرة أخري فضلا عن مخاطر اجتياز صحراء سيناء والتعرض لهجمات القبائل البدوية فيها فأرسل الي طومان باي في مصر لإقناعه أن يكون نائبا عنه في حكم مصر وأن يُذكر اسمه في خطبة الجمعة وأن تصك النقود باسمه. لكن طومان باي رفض هذه التبعية للحكم العثماني بإيعاز من الأمراء المماليك، فاضطر سليم لإكمال زحفه على مصر بإلحاح من خاير بك.

حاول طومان باي الاستعداد للمعركة مع العثمانيين بكل السبل فأرسل حملة بقيادة جان بردي الغزالي -والذي فر من مرج دابق ولم يكن قد انكشف امره بعد- لمقاتلة العثمانيين شمال غزة لتفويت الفرصة عليهم أن يصلوا إلى الأراضي المصرية، لكن جان بردي يعود لخيانته مرة أخرى متقاعسا عن أداء مهمته فيواصل العثمانيون زحفهم نحو مصر.

شرع طومان باي في الاعتماد على بقايا الجيش المملوكي والمتطوعين من المصريين وأمر أن يحفر خندقا دفاعيا عند صحراء الريدانية في شرق القاهرة وكانت خطته تتركز علي أرهاق العثمانيين في عمليات كر وفر ولكن خيانة بعض المماليك سربت خطة طومان باي للعثمانيين الذين داروا حول خندق الريدانية وتوجهوا نحو القاهرة فلحق بهم طومان باي وجيشه حيث أبدوا من البسالة والشجاعة ما مكنهم من إلحاق الهزيمة بالعثمانيين لدرجة مقتل الصدر الأعظم العثماني سنان باشا ولكن التفوق العسكري للعثمانيين حال بين السلطان الشاب وتحقيق النصر الكامل في الموقعة حيث استخدمت لأول مرة المدافع العثمانية الحديثة مما قلب موازين المعركة لصالح العثمانيين ففر طومان باي ورجاله بعدما تكبدوا خسائر فادحة .

تحاشى السلطان سليم دخول القاهرة بعد المعركة مباشرة بسبب المقاومة الباسلة التي أبداها طومان باي ورجاله وقد ذكر ابن زنبل الرمال أن السلطان سليم كان يوبخ خاير بك كثيرا بل إنه هم بضرب عنقه، بعد دخول القاهرة، وهروب طومان باي ونجاحه في تنظيم المقاومة ضد الغزو العثماني، وبعد مرور ثلاثة أيام وتحديدا في 26 يناير 1517 دخل سليم الأول مصر في موكب مهيب برفقته الخليفة العباسي والقضاة ومحاطا بجنده يحملون الرايات العثمانية الحمراء وقد كُتب عليها "إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا"، "نصرٌ من الله وفتحٌ قريب". ولم يكد السلطان يهنأ بهذا الفتح حتى باغته طومان باي في "بولاق"؛ في حملة مفاجئة بعد يومين من دخوله مصر واشترك معه المصريون وأشعلوا النيران في معسكر سليم الأول والذي كان خارج المدينة ، وظن الناس أن النصر لهم، و خطب لطومان باي في القاهرة في يوم الجمعة، وكان قد دعي لسليم الأول في الجمعة التي سبقتها، غير أن هذا الفوز لم يحسم المعركة لصالح طومان باي؛ إذ سرعان ما لجأ الجنود العثمانيون إلى سلاح البنادق، وأمطروا به الأهالي والمماليك، فأجبروهم على الفرار، وفرَّ طومان باي بعد هزيمته بشكل حاسم في معركة وردان قرب إمبابة بالجيزة إلى بنها شمال القاهرة.

أما الأمراء بمن فيهم جان بردي الغزالي فقد استسلموا للقوات العثمانية. وشرع العثمانيون في معاقبة المصريين ويقول ابن إياس في كتابه "بدائع الزهور في وقائع الدهور" أن جنود سليم

الأول أمعنوا في قتل المصريين في الشوارع كما تعمدوا إحراق مسجد شيخون والمنازل المحيطة به باعتباره رمزا لمقاومة طومان باي حيث كان يجتمع فيه مع جنوده وقواده، وانتشرت الجثث في شوارع القاهرة من مصريين ومن مماليك وجنود وأمراء كانوا موالين لطومان باي ويقول ابن إياس (ولم تقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط).

الطريف أن طومان باي قرر أن يلخص للتاريخ بطولته وبطولة الشعب المصري في التصدي للغزاة من العثمانيين وذلك وفقا لرواية ابن زنبل الرمال من خلال معلقة شعرية طويلة أنشدها الأمير قيث الرجبى أمام الأهرام وعلقها عليها!!! يقول فيها:

وعلقنا على الأهرام شعرا كنظم الدر في حسن السياق

لمن يقرأه معبرا ليدري** بأن الله بعد الخلق باق

وتجزي كل نفس يوم عرض*** بما فعلته في يوم التلاقي

لجأ طومان باي إلى شيخ العرب حسن بن مرعي لسابق معروف اسداه إليه في الماضي حيث توسط لإخراجه من السجن في عهد الغوري الا أن كراهية العرب للجراكسة والمتأججة في الصدور جعلت شيخ العرب يحنث قسمه لطومان ويسلمه للسلطان سليم. وذلك حسبما أورد ابن إياس فيما يذكر ابن عمار الخيلي ان طومان باي هو الذي سلم نفسه. أعجب سليم الأول بشجاعة طومان باي في الدفاع عن ملكه بالرغم من كل العوائق، وكاد السلطان أن يعفو عنه ويتخذه وزيرا، لكن خاير بك أوغر صدره عليه قائلا: "يا مولاي، إن أبقيت عليه وجعلته وزيرا لا يبقي عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ويفسد جميع عساكرك".

عندئذ أمر السلطان بقتل طومان باي شنقًا بشكل علني، فسُلِّم طومان باى إلى على باشا دلقدار أوغلو ليعدمه على باب زويلة، وكان المماليك قد أعدموا شهسوار بك والد على باشا دلقدار أوغلو قبل أربعين عاما على نفس هذا الباب لصداقته مع العثمانيين!!، ودُفن الجثمان في القبر الذي كان السلطان الغوري قد أعدّه لنفسه ويصف ابن إياس إعدام طومان باي بقوله: (فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة، وقال للناس الذين حوله: أقروا لي سورة الفاتحة ثلاث مرات. فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه، ثم قال للمشاعلي: اعمل شغلك. فلما وضعوا الخية في رقبته ورفعوا الحبل انقطع به فسقط على عتبة

باب زويلة، وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع إلى الأرض، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس) .ويضيف: (فلما شنق وطلعت روحه؛ صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته، وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغوري عمه، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك، ودفنوه في الحوش الذي خلف المدرسة، ومضت أخباره كأنه لم يكن) يقول ابن زنبل الرمال: (وكان ذلك اليوم على أهل المملكة أشأم الأيام، وبكت عليه الأرامل والأيتام) .فيما يتحدث ابن إياس عن تفرد الواقعة بقوله :(ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط، ولا علقت رأس سلطان على باب زويلة قط، ولم يعهد بمثل هذه الواقعة في الزمن القديم). ولقد دفع الإعجاب بطومان باى الفنان الأيطالي (باولو جيوفو) وهو صاحب الصورة الشهيرة لقنصوة الغوري إلى اعتبار طومان باى من الشخصيات التاريخية المؤثرة.

الطريف هو ما أورده الباحث التركي البارز يلماز أوزتونا في كتابه تاريخ الدولة العثمانية من أن سليم الأول أقام لطومان باى احتفال تشييع جثمان لا مثيل له مكتنفا تابوت طومان باى بنفسه وأنه وزع على الفقراء النقود الذهبية لمدة ثلاثة أيام علي روح طومان باي!!! ...والحقيقة أنه لو صحت هذه الرواية فالسلطان سليم الأول الأب الروحي للمثل الشعبي (يقتل القتيل ويمشي في جنازته).

غادر سليم الاول مصر عائدا الي اسطنبول عام 1518 بعد حملته على مصر والتي استغرقت سنتين وشهرين وهي الأطول في التاريخ العثماني.

المقال الثامن: مأساة ابن المقفع

تعج كتب التاريخ بالمعارضين عبر العصور وهم على كثرتهم يوجهون سهام المعارضة لكل شيء وأي شيء بموضوعية أحيانا وبدونها في أحيان أخرى، وهذه هي المعارضة السلبية التي لا تثري الواقع فهي لا تمتلك رؤية حقيقية أو تصور بديل قابل للتطبيق لذا فهي لا تبني حراكا حقيقيا نحو مستقبل مغاير ولكن قلما يقع نظرك على المعارض الإيجابي الذي يشخص الداء ويشرّح جسد السلطة العليل ويمتلك آليات و أدوات الإصلاح بما يكفل درء الداء وتصحيح المسار عبر ألوان من الرقابة المستمرة والمتابعة وتقديم أوجه الدعم والمشاركة عبر برامج ومشاريع إصلاحية قابلة للتطبيق الناجع. ومن أبرز الإيجابيين المعارضين الذين عرفهم التاريخ عبد الله بن المقفع.

عبد الله بن المقفع نشأته وصفاته:

هو روزبه بن داذويه ولد في قرية جور بفارس، ثم انتقل إلى البصرة، وتعلَّم العربية، ودرس وتخرج على يد عبد الحميد الكاتب، كان مجوسيا كأبيه وعن سبب تسمية أبيه بالمقفع لاتهامه بسرقة أموال من خراج فارس وكان قد ولّاه عليها الحجاج ابن يوسف الثقفي فعاقبه الحجاج بالضرب على أصابع يديه حتى تفقعت أي تورمت واعوجت وشلت في النهاية ومنها عرف بالمقفع ...

تفرد روزبه بالجمع بين الثقافة الفارسية والعربية وحينما أوشك نجم الدولة الأموية على الأفول والتي كانت شديدة العصبية للجنس العربي كان روزبه على أهبة الاستعداد للانغماس في النظام الجديد المنحاز للموالي وهو الدولة العباسية الوليدة حيث اتصل بالأمير العباسي عيسي بن علي (عم الخليفة، أبي جعفر المنصور) والي الكوفة حيث أشهر إسلامه بين يديه وسمى نفسه «أبا محمد عبد الله» وأصبح من كتبة الدواوين في ولايته.

تميز (ابن المقفع) بذكائه وحكمته فهو المحب لأصدقائه كما يظهر من كتاباته ومنها قوله: "ابذل لصديقك دمك ومالك" وحينما سُئل ابن المقفّع "من أدّبك"؟ كانت إجابته شديدة البلاغة: "إذا رأيت من غيري حسنا آتيه، وإن رأيت قبيحا أبَيْته". وعن حفظ الجميل يقول: (إذا أسديت جميلا إلى إنسان فحذار أن تذكره وإذا أسدي إنسان إليك جميلا فحذار أن تنساه) كما يقول: (إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوبُ فانظر أيهُما أقربُ إلى هواك فخالفه، فإن أكثر الصواب في خلاف

الهوى). كما عرف عنه كراهيته للنساء إلى حد وصفهن بالطعام لا يأكله الإنسان إلا إذا جاع والطعام سريع الفساد!

وكان معاصروه يقولون عنه (لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ابن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع).

كتاب كليلة ودمنة ورسالة الصحابة:

لعب ابن المقفع دور المعارض الناصح ولكن الحاكم في هذه الحقبة الزمنية أصبغ على نفسه حكما ثيوقراطيا مطلقا وهو أبو جعفر المنصور فقد خطب في الناس قائلًا: «أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على ماله، أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قفلاً، فإن شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني عليه قفلني) وبهذا صار الخليفة المتحكم في أرواح الناس وأرزاقهم فشاع الفساد في أرجاء الدولة وأصبحت الفجوة مترامية بين الفقراء من عامة الناس والأغنياء من البيت العباسي ، و للشاعر «أبو العتاهية» قصيدة ترصد الواقع بجلاء:: (من مُبلغ عني الإمام نصائحًا متوالية/ إني أرى الأسعار، أسعار الرعية غالية/ وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشية/ وأرى غموم الدهر رائحة تمر وغادية/ وأرى اليتامى والأرامل في البيوت الخالية/ يشكون مجهدة بأصوات ضعاف عالية)

لم تكن ملامح هذا الفساد مستترة على ابن المقفع وقد كان يعمل بالديوان فالأموال تأتي من الأمصار إلى بغداد مقر الحكم دون أن تدون في سجلات وكان يرى أنه لا مناص من الإصلاح بالعودة إلى النظم الإدارية الفارسية، التي استرشد بها الفاروق عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" في بناء الدولة الإسلامية، والدولة تعيش في فوضى من الأحكام فالقضاة لا يستندون في أحكامهم إلى تشريعات أو قوانين محددة فنبه على حتمية استقلال القضاء والاتفاق على آلية واحدة تسير بها الأحكام.

نقل ابن المقفع قصص كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية وقد أبدع في الاستعانة بالحيوانات في رمزيات ساحرة متضمنا كتابه اسقاطات سياسية لا تخفي علي عقل حصيف فيورد ابن المقفع في مقدمة كتابة قصة ملك الهند(دبشليم) مع الفيلسوف «بيدبا»، فقد كان دبشليم ملكاً على الهند، إلا أنه حاد عن نهج آبائه وأجداده في ارساء العدل بين رعيته فاستصغر شأنهم ، فطغى تجبّر ، فلما رأى بيدبا الملك علي هذا المنوال جمع تلاميذه مخاطبا إياهم: (اعلموا أني قد أطلت

الفكر في الملك وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية، ونحن ما نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك إلا لنردّهم إلى فعل الخير، ولزوم العدل، ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزمنا من وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات إلينا ألم الجهال، وليس الرأي عندي السفر من الوطن، ولا يسعنا في حكمتنا إبقاء الملك على ما هو عليه، ولا يمكننا مجاهدته إلا بألسنتنا، وإني قد عزمت على الدخول عليه ونصحه، وليكن ما يكون) فدخل بيدبا على الملك مقدما إليه النصيحة فغضب الملك وأمر بقتله ثم خفف حكمه إلى السجن. ويشاء القدر أن يتعرض الملك لأحدي المسائل التي يشعر فيها بحاجته لحكمة بيديا فعفا عنه وأوكل إليه إقامة العدل مخولا إليه كافة الصلاحيات في تحقيق ذلك. وفي ذلك رسالة واضحة لأبي جعفر المنصور

كما يهمس كاتبنا في أذن المنصور في ضرورة اختيار حاشيته ورجال الدولة بمعايير من الكفاءة والقدرة لما لحاشية السوء من دور في إفساد الحاكم وتضليله ونقل الصورة على خلاف الحقيقة لتحقيق مآربهم مما يؤدي في النهاية إلى انفصام عري علاقة الحاكم برعيته فيقول دمنة في باب "الأسد والثور": (لا أظنّ الأسد إلا قد حمل عليّ بالكذب وشُبّه عليه أمري، فإنْ كان الأسد قد بلغه عنّي كذب فصدّقه عليّ وسمعه فيّ، فما جرى على غيري يجري عليّ) والأسد هنا رمز للحاكم. وقد أفرد رسالة في هذا الخصوص تحت عنوان "رسالة الصحابة" قاصدا بها بطانة المنصور، موجها إليهم نقدا مريرا لما يرتكبوه من أعمال ذميمة، فضلا عن انتقاده لمغالاة قادة الجند في تقديم فروض الولاء للخليفة.

أفكار ابن المقفع:

لقد كان ابن المقفع سباقا في وضع لبنات نظرية العقد الاجتماعي سابقا جان جاك روسو وإن لم يتوسع في الجانب السياسي بحكم طبيعة المرحلة. كانت أفكار ابن المقفع تدور حول ضرورة احترام حقوق الإنسان وتقديرها ، ومنها الحرية ، وإقامة العدل و المساواة الاجتماعية داخل المجتمع دون تفرقة عنصرية على أساس الدين أو العرق ، كما نادى بتثقيف الجند وإبعاد القادة والجند عن ولاية الخراج والأمصار فالولاية وما يتبعها من لين العيش هو مفسدة للمقاتلين، وأن يتقاضوا رواتبهم في وقت محدد دراء للعوز الذي قد يقعهم فريسة للخيانة، كما اقترح إحصاء الأراضي وتسجليها بأسماء مالكيها في دفاتر رسمية، وأن يكون المفروض عليها محددا ، على أسس قانونية محددة مما يدرأ عن المجتمع فساد عمال الخراج الذين يستولون على أموال الناس وأراضيهم دون وجه حق.

وعلى عادة المفكرين القدامي كان يرى صلاح الشعب رهنا بصلاح الحاكم فيقول في رسالة الصحابة" حسن رؤى الرعية من حسن سياسة الحاكم، وصلاحها من صلاحه"، و" الناس على دين ملوكهم". والصواب أن تربية الشعوب وتعليمها وترسيخ القيم فيها لابد وأن تكون مسألة مستقلة عن حاكمه صلح أم لم يصلح. فالمصلح والمخلص والمربي مصطلحات عفي عليها الدهر ولم تعد لائقة بشعوب تنشد الحرية و الحياة.

أسباب مقتله:

تعود مسألة مقتل ابن المقفع كما رواها «الجهشياري» في كتابه (الوزراء والكتاب) حينما دب الخلاف بين أبي جعفر المنصور و عمه «عبد الله بن علي» وقاتله على الخلافة؛ فهرب عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى بن علي بالبصرة، فخشي عليه أخواه من انتقام المنصور، مما دعاهما إلى مناشدة الخليفة حتى يؤمنهما على عمه عبد الله، وكان ابن المقفع كاتبا لدى عيسى بن علي كما أسلفنا فتشدد ابن المقفع في كتابة الأمان، وبالغ في حرصه لمعرفته بغدر المنصور فكتب : «وإن أنا نلتُ عبد الله ابن علي أو أحدًا مما أقدمه معه بصغيرٍ من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضررًا سرًا أو علانيةً، على الوجوه والأسباب كلها، تصريحًا أو كناية أو بحيلة من الحيل، فأنا نفيٌ من محمد بن علي بن عبد الله، ومولود لغير رشدة، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين». فاستشاط المنصور غضبا من كاتب الرسالة ابن المقفع ولم يكن ممن يطيقون النقد أو يتقبلون النصح، وكان يأخذ بالشبهة عملا بوصية أخيه الإمام إبراهيم صاحب الدعوة" من اتهمته فاقتله " والاتهام في ذلك العصر مرادفا للشك، وعقابه هو القتل وللإمام إبراهيم رسالة شهيرة كتبها لابي مسلم الخراساني بقتل أي غلام بلغ خمسة أشبار إذا شك في ولائه! نعود إلى مجلس المنصور فقال المنصور: "أما من أحد يكفينيه"؟ وكان والي البصرة سفيان بن معاوية يكره ابن المقفع فتولى تنفيذ عقوبة القتل بحقه.

أبشع طريقة للقتل عبر التاريخ:

كان بين سفيان وابن المقفع فيما مضى ما أغضب ابن المقفع فسبّ أمه ونعتها بالمغتلمة أي المرأة التي لا تنطفئ شهوتها من الرجال، فلما ظفر سفيان بابن المقفع قال له: أمي مغتلمة كما كنت تقول إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد!! وتفتق ذهنه عن أبشع صور القتل، قائلا لابن

المقفع: والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة! فأمر بتنور أشعلت فيه النيران، وبدأ يقطع من جسد ابن المقفع عضوا عضوا وهو حي، ويلقى بها فى التنور حتى يرى أطرافه وهي تقطع ثم تحرق، قبل أن يحرق بالكلية في النهاية. ولكن ابن المقفع قابل مصيره رابط الجأش فأنشد بيتين من الشعر مع أخر أنفاسه

إذا ما مات مثلي مات شخصٌ ... يموت بموته خلقٌ كثير

وأنت تموت وحدك ليس يدري ... بموتك لا الصغير ولا الكبير

المقال التاسع: داء مصر ...حينما تمرض الاوطان

هل تمرض الاوطان حقا؟ !!اجل تمرض الاوطان الا انها لا تموت غير ان منها ما يبرأ ومنها ما يبقي عضالا لا أمل في شفاءه ومما يؤسف له أن بلادنا الحبيبة مصر تقع في القسم الثاني حيث المرض الذي لا يبلي والاعراض التي لا تخفت ...ولقد نجح القران الكريم في تحديد ملامح الداء المصري علي نحو جلي كما وضع العلاج ايضا في تفرد لم يحظى به وطن اخر غير مصر المريضة دوما ..و عناصر الداء المصري يستعرضها القران عبر قصص بديعة خالدة تشرح الجسد المصري العليل كاشفة حقيقة مرضه في تسلل علي النحو التالي:

اولا: الحاكم او رأس السلطة في مصر والذي اختار القران ان يختصه بلقبه وهو فرعون حيث السلطة المطلقة والانفراد التام بالسلطة دون تحديد لاسمه في القصة عن قصد لان القران ليس كتابا يؤرخ قصة للتاريخ بل يسوقها لتشخيص حالة متأصلة ومستمرة وليست قصة وقتية وانتهت فالقصة لم تنتهي عند الحد بل قائمة حتي قيام الساعة ولكن بشخوص مختلفة واسماء متغايرة ولكن يبقي اللقب :فرعون وتبقي الحالة واحدة ويمضي القران في اطار معجز ليرسم لنا صورة الحاكم المصري المستبد عبر العصور والذي يوطد دعائم سلطاته عبر تقسيم الشعب الي طائفتين اولهما صفوة المقربين الممتلكين لكل المقدرات والطائفة الأخرى هي المستضعفين الذين يعانون قسوة العيش والفقر المدقع قال تعالي :(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)..

وهذا المفهوم لا يقتصر علي شخص الحاكم رأس الهيكل التنظيمي بالبلاد بل ينتقل بالتبعية للمحكومين الذين يمارسون مهام اشرافية وادارية صغرت او كبرت في اطار الهيكل ذاته فبكل مصلحة حكومية بمصر وبكل شركة وبكل مكان به رئيس ومرؤوسين لا يمكن ان تجد قائدا يفهم معني القيادة وانماطها واتخاذ القرار عبر آليات المشاركة والعلم وان تظاهر بذلك بل تجد المدير في حقيقته فرعونا يمارس سلطاته بغطرسة وتعالي ولعل في شخصية اسماعيل صدقي رئيس وزراء مصر السابق استجلاءا رائعا لهذا الامر فالرجل الذي خرج مع سعد زغلول ليدافع عن حق مصر في تقرير مصيرها ونفي معه الي مالطة حينما واتته الفرصة ليصبح في السلطة انطلق من صدره المارد الفرعوني المتأصل فأنقلب علي الحرية واعتبر ان الرأي العام المصري الذي دافع عنه في السابق لا يعدو كونه صدي صوت رعاع !! وان المصريين تجمعهم صفاره وتفرقهم العصا!!!...

. كما ان مصير هؤلاء الطغاة والذي اوضحه القران بشكل بديع في مصير فرعون قال تعالي: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) لم يفت في عضد حكام مصر عبر العصور ليثنيهم عن انتهاج نفس النهج ثم ملاقاة نفس المصير مع غياب الاتعاظ والاعتبار فمن كان يظن ان ينتهي الحال بحكام الدولة الفاطمية ومنهم الحاكم بأمر الله الذي رفع نفسه لدرجة الالوهية ان يصبح مآل أجداثهم هو مقلب القمامة!! فمما يروي ان الامير المملوكي جهاركس الخليلي كان يريد اقامة مشروع اقتصادي ضخم وهو المعروف بخان الخليلي الان وكان المكان الذي اختاره لسوقه الضخم هو تربة الزعفران التي تضم رفات الخلفاء الفاطميين وبالطبع ازالة هذه الرفات تحتاج الي فتوي والتي نجح في الحصول عليها من صديقه القاضي الحنفي شمس الدين محمد القليجي بجواز نبش قبور الخلفاء الفاطميين والقاء ما فيها من رفات لكونهم كفارا معتدين رفضة !!!وفي مشهد غير انساني بدأ العمال في استخراج رفات العشرات من الرجال والنساء ووضعوهم داخل قفف على ظهر البغال لتتطوف بهم في حارات القاهرة، التي لطالما شهدت مرور مواكبهم وهم احياء وسط هتافات الحشود في الماضي ،لينتهي المآل بهم في كيمان البرقية -"مقلب قمامة "بجوار الجامع الازهر الذي بنوه والذي شهد الدعاء لهم علي منابره لعهود طويلة!!!!

ثانيا :كراهية المعارضة فعلي الرغم من أن القران الكريم وضع ملامح المعارضة السلمية القائمة علي المراجعة والمناقشة في قوله تعالي :(اذهبا إلى فرعون إنه طغى *فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) فالمعارضة في مصر تعني الخيانة والعمالة والاجندات الخارجية ..وغياب المعارضة بأي دولة يفقدها الخطط البديلة والبدائل والخيارات السليمة ..اما الحديث المنسوب للنبي صلي الله عليه وسلم :(تطيع للأمير وإن ضرب ظهرك واخذ مالك) فهو من المتون الواجب مراجعتها فبالإضافة لتناقضه مع جوهر الاسلام حيث جاء رجل الي رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي قال :فلا تعطه مالك قال :أرأيت إن قاتلني قال: قاتله قال: أرأيت إن قتلني قال: فأنت شهيد قال :أرأيت إن قتلته قال :هو في النار. فهل يرخص النبي للافراد الدفاع عن اموالهم فيما بينهم ولو استلزم الامر القتال فيما يرخص للحاكم وهو من المفترض أن يكون القدوة ظلم الناس واخذ أموالهم بالباطل؟!!!

ومن ناحية اخري فالحديث يتناقض مع فهم الصحابة أنفسهم لجوهر الاسلام فحينما أرسل سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه الصحابي الجليل ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس وسأله رستم: ماذا جاء بكم؟ كانت اجابة ربعي رائعة ومعبرة عن فهم عميق لرسالة المصطفي صلي الله عليه وسلم فقال:(ان الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الي عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا الي سعتها ومن جور الاديان الي عدل الاسلام).

ثالثا :الزهو والخيلاء بحكم مصر قال تعالي:(ونادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) وهذا هو السبب الذي يحرمنا دوما من الدخول في تنافسية حقيقية مع من حولنا لأننا ننظر اليهم بتعالي وكبرياء والحقيقة أن عدم قراءة معطيات الواقع المحيط افقد مصر استضافة المونديال وافقدها رئاسة اليونيسكو لغياب مفهوم التقييم المقارن والتقييم المقارن وهو من اساسيات جودة الاداء و يعني ان تكون متواضعا بالقدر الذي تعترف فيه بأن شخصا اخر افضل منك في مجال معين وان تكون حكيما بما فيه الكفاية لان تتعلم كيف تجاريه او حتي تتجاوزه في هذا المجال .

ونحن للأسف الامة الوحيدة التي لازالت تعيش على ارث الماضي والسبعة الاف سنة حضارة دون ان تتحرك قدما لخطوة واحدة في تحسين واقعها ولا نقول انشاء حضارة جديدة.

رابعا: النفاق.. انهم النخب المحيطة بفرعون التي تطيعه بكل شيء حتى وان ضرب بالمنطق عرض الحائط وتصل به الي تصديق ذاته الأسطورية ولعل في شخصية هامان الرجل المخلص لفرعون تجسيدا لهذه الصورة المثلي للنفاق قال تعالى: (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب) ماذا لو توقف هامان عن نفاق فرعون وكاشفه باستحالة اجابة طلبه؟

ولن تجد دولة بالعالم حينما يلم بأرضها زلزال يزهق الارواح ويضيف الي معاناتهم المعيشية ضائقة انسانية كما حدث بعهد الحاكم بأمر الله ثم تجد شاعره محمد بن قاسم بن عاصم يتحدث على هذا النحو من الاستخفاف بالكارثة ضاربا اروع صور النفاق حينما قال: (بالحاكم العدل أضحى الدين معتليًا ... نجل الهدى وسليل السادة الصلحا.. ما زلزلت مصر من كيد يراد بها. لكنها رقصت من عدلكم طربا)!!!!

خامسا :البلطجة ...والحقيقة ان البلطجة في مصر ظاهرة اصيلة تضرب بجذورها في مصر اعماق التاريخ فهي لغة التحاور بين الناس حينما يغيب العدل وتضيق الاحوال بالناس ولعل في قصة اشتباك الرجل اليهودي مع المصري ثم تدخل موسي عليه السلام ليلقي الرجل المصري مصرعه صورة بديعة في نقل انعكاس تأثير الاستبداد في تردي طرق التعامل بين الناس والتحول بهم الي ممارسة العنف قال تعالي:(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ على حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ ۖ قَالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ).

والحقيقة ان كلمة البلطجة الحالية هي مسمي قد ضل طريقه عبر الزمان ليصبح مسمي للأشرار الممارسين للعنف فقد أطلق هذا المسمى في البداية علي المهندسين العسكريين في عهد محمد علي الذين يتقدمون الصفوف ويوجد مخطوط حربي يرجع الي عام١٨٦١ تحت اسم (النخبة الجلية في تعليم البلطجية) للأستاذ احمد افندي العلمي يشرح الدروس التي كانوا يتلقونها في مهمات الحصار كما حمل لقب البلطجية فرقة الجيش التي خصصها محمد علي باشا للتصدي للمتحرشين والمعاكسين للطالبات بأول مدرسة انشأها محمد علي لتعليم البنات ..غير انه ومع مرور الوقت تحول اللقب واصبح صفة للفتوات والعتاة من اللصوص..

سادسا: السلبية ...ولعل من السمات المؤسفة التي تميز بها المصريون السلبية المفرطة ففي يوم الزينة وقد ظهر للمصريين حقيقة فرعون وان سحرته كاذبون وبالرغم من هذا قنعوا بالمشاهدة فحسب ولم يحركوا ساكنا وقد كان بأمكانهم ان يغيروا صفحة التاريخ للأبد ويثوروا علي فرعون وقد ظهر ضعفه وخذلانه..

كما ان التوراة والقران لم يتحدثا عن انضمام اي فصيل من المصريين الي صفوف اليهود عند هجرتهم من مصر بقيادة موسي عليه السلام وازاء هذا القنوت كان وصف القران قاسيا لهم قال تعالي :(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) وعبر التاريخ ستجد السلبية المصرية واضحة لدرجة ان حكمهم اقواما من العبيد وهم المماليك لما يربو على القرنين ونصف من الزمان وهو حادث فريد في التاريخ الانساني لا مثيل له ومارسوا من صنوف الحكم ما يشيب له الولدان والمصريون غائبون عن المشهد..

سابعا: القضاء المصري ..ولعل في قصة سيدنا يوسف توصيفا دقيقا لتسيس القضاء المصري علي نحو يخدم الحاكم ولا يحقق العدل للمحكومين قال تعالي:(واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) وعلي الرغم من وضوح القاعدة القانونية والتي ذكرتها الآية ويؤيدها المنطق الا ان القضاء انحاز الي امرأة العزيز **!!**ليلقي يوسف في غيابات السجن ..

في كل العالم الغاية من القانون هو ارساء قواعد تنظم العلاقة بين البشر علي نحو يحقق لهم العدالة ويسهل وينجز معاملاتهم ويتم وضعه بموافقه المجتمع المدني علي نصوصه الا في مصر فالقانون في مصر تصنعه السلطة وتضع حوله هالة من التقديس امام الشعب وتجعل الناس في خدمته بدلا من ان يكون في خدمتهم ثم تستثني منه من تشاء وترفع فوقه من تشاء وتعاقب به من تشاء.

وفيما يتصالح القانون مع جرائم المستثمرين الذين يسرقون المجتمع فلا يمكنه في المقابل ان يتصالح او يتسامح مع المواطن المسكين الذي قد يخرق القانون غصبا عنه يوما او يسهل اجراءاته ..كما يمكن للحاكم ان يعبث حتي بحدود الله فلك ان تتخيل ان السلطان المملوكي قنصوه الغوري والذي كانت الدولة في عهده معترفة بالبغاء وكانت تجني منه ضرائب باهظة قرر ذات يوم ان يكون مجدد دين الاسلام وان يكون اول من يطبق حد الزنا بعد النبي صلي الله عليه وسلم **!**و فجاءة ودون سابق انذار ولسوء طالع السلطان تراجع طرفي القضية عن الاعتراف بالزنا علي الرغم من اعترافهما به في البداية وبالتالي سقط حد الرجم بحقهما وهو الحكم الذي لم يعجب السلطان فعزل قضاته الذين لا يفقهون بالدين**!!!**وتولي تنفيذ الامر بنفسه وبدلا من الرجم امر بربطهما في حبل واحد ووجه المرأة في وجه الرجل ثم شنقهما**!!!!**

ومن داخل السجن كان لنا موعد مع مشهد استثنائي للنبي يوسف خارجا عن سياق القصة يحملنا به القران الي عرض اخر من اعراض الداء المصري وهو الغاية من السجن ففي داخل السجن مارس يوسف دورا دعويا للارتقاء بالسجناء ودفعهم للتوبة حينما قال. قال تعالي:(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّار)٬ وهي غاية غائبة في مصر فالسجن في مصر هو مصنع لإنتاج مجرمين جدد بدلا من اعادة تأهيلهم وتخصيص فرق دعوية للنهوض بهم دينيا واعادتهم ضمن نسيج المجتمع كأفراد صالحين..

ولان الشيء بالشيء يذكر فالدستور المصري وهو مظلة القانون كان دوما بعيدا عن التطبيق وعرضة دوما للانتهاك عبر تاريخ مصر الحديث ولقد كان في كلمات الرئيس الامريكي ثيودور روزفلت بجامعة القاهرة عام ١٩١٠ والتي ألبت عليه السياسيون المصريون وقتئذ تلخيصا وجيزا لذلك حيث قال: ان بعض الجهلاء يعتقدون ان منح الامة دستورا على الورق وبخاصة إذا كان مفتتحا بعبارات فخمة من شأنه ان يمنح الامة قوة الحكم الذاتي مع ان شيئا من ذلك لا يحدث بتاتا!!!!

ثامنا: غياب التراحم الحقيقي بين عنصري الامة المصرية وهما: المسلمون والاقباط والحقيقة ان حديث النبي صلي الله عليه وسلم بالإحسان الي الاقباط هو سنة غائبة لروشتة نبوية حملها حديث النبي صلي الله عليه وسلم: انكم ستفتحون مصر وهي ارض يسمي فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما أو قال ذمة وصهرا ...وهذه الروشتة واجبة النفاذ..

تاسعا: غياب الاستراتيجية القائمة علي تحديد الاولويات وهي الاستراتيجية التي وضعها سيدنا يوسف عليه السلام لإنقاذ مصر من الجفاف والتحول بها من دولة تحيط بها الازمات وعلي حافة الافلاس الي دولة دائنة تقدم الدعم للدول من حولها قال تعالي(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)

وفي نهاية مقالنا الذي حاولنا فيه ان نشخص داء مصر عبر القران نتمنى أن يأتي اليوم الذي تتعافي فيه مصر وتصبح مصر القوية التي ننشدها جميعا ونبتهل الي الله أن نعيش في كنفها قبل الممات..

المقال العاشر: أحاديث رسخت الطغيان

لقد قدم العرب المسلمون للعالم من خلال تتبعهم لسند احاديث رسول الله صلي الله عليه وسلم درسا عظيما في كيفية توثيق المادة العلمية وردها لمصدرها وهو ما يمكن ان نسميه نواة صغيرة لضرورة تضمين اي مادة علمية للمرجع المأخوذ منه وهو ما سار عليه العالم حتي يومنا هذا الا ان اعلاء شأن السند كان في مقابل المتن وهو ما يعني ببساطة ان النقل كان هو الاكثر أهمية وتقديما علي العقل فأهملوا عقد المقارنات بين احاديث متناقضة تمس واقع الانسان وحياته بشكل كبير لمجرد صحة اسنادها وقد بدت متناقضة ايضا الي حد كبير مع كثير من الاثار و واقع الحوادث اللاحقة عليها

غير ان قاعدة النقل المقدم علي العقل قطعت شوطا كبيرا في الجمع بين الأحاديث ومحاولة ايجاد مخارج لها وان خالفت العقل ومنها حديث :(اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة).. اللافت ان راوي هذا الحديث هو ابو ذر الغفاري الذي امتنع عن بيعة ابو بكر في البداية وعارض عثمان فنفاه للشام وهما الرعيل الرشيد الذي تربي في كنف النبي**!!!** وليس هناك ما هو افضل في رد هذا الحديث من تناقض حال راويه لمتن الحديث المنقول عنه ...اما حديث حذيفة بن اليمان عن النبي صلي الله عليه وسلم: (اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك) فيناقض حديث ابي بكر عن النبي صلي الله عليه وسلم : (ان الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا علي يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه).

ان حديثي العبد الاسود وطاعة الامير الضارب لظهور رعيته والسالب لأموالهم وغيرها جاءت ملائمة للفترة السياسية التي اعقبت عصر النبي صلي الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ..وفترة الخلفاء الراشدين وطريقة توليهم تعتبر اكبر ناقض لهذين الحديثين سالفي الذكر فاختيار ابو بكر لقربه من النبي وسبق تصديقه له ومرافقته له في مراحل الدعوة والهجرة جعلت منه المرشح الاوفر حظا لقيادة المسلمين بعد وفاة النبي ومع ذلك جرت معارضة ضد توليته واجتمع المناصرون والمعارضون في سقيفة بني ساعدة ليستقر عليه الجميع كرئيس توافقي استقر عليه الجميع وكانت خطبة ابي بكر الاولي بعد توليته داعمة لحق الرعية في المعارضة وتقويم الحاكم :(اطيعوني ما اطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم) وهل ضرب الظهر وسلب اموال الناس بالباطل ليس بمعصية **!!** ومما يروي عن عمر بن الخطاب انه قال في مجلس وحوله المهاجرين والانصار :(أرأيتم لو ترخصت في بعض الامر ما كنتم فاعلين؟

فسكتوا فعاد مرتين أو ثلاثا قال بشير بن سعد: لو فعلت قومناك تقويم القدح. قال عمر :أنتم إذن أنتم وفي رواية اخري :الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني)...

اذن القولان يخرجان من مشكاة واحدة بما لا يدع مجالا للشك ان اختيار الحكام يكون بشروط محكمة ومرتبط بطاعة الله والعدل بين الرعية والحق في المعارضة وهو الميثاق الذي قرره الخليفتين الراشدين في خطبتيهما ولو قارنا الخطبتين بقول الرجل لمعاوية :(والله لتستقيمن بنا يا معاوية أو لنقومنك فرد معاوية: كيف تقومني ؟ قال الرجل: بالخشب فقال معاوية: إذن نستقم) لوجدنا وضوحا في التحول من شخصية الحاكم المعلم المبادر لحقوق رعيته الذي يلقن رعيته درسا رشيدا في معارضته ومحاسبته الي شخصية الحاكم الذي سأل عن وسيلة التقويم بدلا من أن يسأل الرجل عن ما ينكره علي حكمه!!! .. اذن هذا التغير في تفكير الحاكم والظروف السياسية التي سادت الحكم الاموي وطريقة انتقال الحكم بالتوارث قد تطلبت هذه النوعية من الاحاديث التي ترسم الطريق للاستبداد والظلم وتؤمن له البقاء...

اتباع طريقة التوارث في الحكم كانت تحتاج مسوغا شرعيا وكان افضل وسيلة هو استخدام هذه الاحاديث فقد كانت الحاجة ماسة لها نظرا لمعارضة الصحابة لهذا الشكل من توارث الحكم ..فالحسن سبط النبي كان شرط موافقته علي التنازل عن الحكم لصالح معاوية بن ابي سفيان هو أن يكون الامر من بعد معاوية بيد المسلمين يختارون ما يشاؤون وهو الشرط الذي ضرب به معاوية عرض الحائط مع استخلافه لابنه يزيد ولو كان هذا الشرط احاديا واجتهادا من الحسن وليس من صميم الاسلام لما رفض عبد الرحمن بن ابي بكر ايضا استخلاف ابن معاوية وقطع خطبة معاوية قائلا :والله لتردن هذا الامر شوري بين المسلمين أو لنعديها عليك جذعة و لما خرج الحسين السبط الثاني للنبي ثائرا علي حكم يزيد وبالطبع يزيد في كل الاحوال افضل من تمليك عبد لأمور الرعية!!!! ثم أعقب ذلك خروج عبد الله بن الزبير علي ثلاثة حكام متعاقبين: يزيد ومن بعده مروان بن الحكم وامتد حتي حكم عبد الملك بن مروان والحقيقة ان استمرار اسرة النبي صلي الله عليه وسلم علي هذا النحو في الثورة علي التوارث بين الامويين يؤكد ان حيودا قد حدث في فلسفة الاسلام في اختيار حكام المسلمين ...

تعالوا لنستطلع ابعاد مجموعة من الصور الرائعة التي ترسم الشكل الحقيقي للحكم في الاسلام والتي اعقبت اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب والذي شهدت حياته استبعاد عدد من الصحابة عن سلك الولاية منهم ابو هريرة الذي عزله عمر عن ولاية البحرين وكان يحاسب الوالي قبل وبعد الولاية فلعل عمر لم يطلع علي هذا الحديث الذي يطلق يد الحاكم في اموال الرعية!!! !!

لقد كان عمر سباقا في وضع اطارا لأول انتخابات ديموقراطية في التاريخ حيث وضع الخلافة في ستة من اصحاب النبي مات عنهم النبي وهو راض فكان هذا معيارا حياديا في اختيار السته ومع انسحاب ثلاثة من السباق الانتخابي انحصرت المعركة الانتخابية بين اثنين من الصحابة لتدور اول مناظرة رئاسية بين متنافسين انتخابيين في التاريخ ويديرها الصحابي المخضرم عبد الرحمن بن عوف ويشاهدها الناس ولم يتوقف الامر عند هذا الحد بل جري تصويتا للناخبين عبر استطلاع رأي كل بيت من بيوت المهاجرين والانصار اجراه الصحابي عبد الرحمن بن عوف ليحسم الامر للخليفة عثمان بن عفان ويحترم المتنافس الاخر علي بن ابي طالب لنتيجة الانتخابات هل هناك اروع من هذه الصور التي تضاهي اكبر الممالك والجمهوريات الديموقراطية في العالم ..هل يعقل ان نفرغ هذه الروعة من مضمونها ونمضي في اثر العبد الاسود والخضوع للأمير ولو ضرب ظهرك واخذ مالك !!!

لنتوقف مليا عند تولية العبد حتى ندحض هذه الرواية بشكل عقلي ومنطقي...من منا لم يقرأ عن قصة العز بن عبد السلام الذي استنكر علي السلطان نجم الدين ايوب تولية امراء المماليك علي رؤوس الناس وان العبد لا يحكم الحر وطالبه ببيع مماليكه وايداع مردود بيعهم في بيت مال المسلمين..

يا تري كم مرة سمعت الشيوخ يتفاخرون بهذه القصة وموقف العز بن عبد السلام هل سمعت احدا منهم خطئ العز وذكر المستمعين بحديث النبي عن حكم العبد الاسود !!وقد كان المماليك في هذا العصر وعلي الرغم من كونهم عبيد كانوا ايضا حائط الصد ضد هجمات الصليبيين اي انهم شاركوا في الجهاد وهو اشرف الاعمال ومع ذلك رفض العز حكمهم ..نأتي لنقطة اخري تتعلق بحقوق الرقيق في الاسلام فالحر لا يقتل بالعبد وكذلك لا يعتد بشهادة العبد خاصة في الحدود والتي من المفترض ان يقيمها ان صار حاكما !!!!!ولا يحد قاذفه .تصور انك تستطيع ان تسب الحاكم العبد دون ان يقام عليك الحد فهنيئا اذن للمتنبي سب كافور الاخشيدي في شعره !!!!هل يعقل ان يجعل الاسلام العبد اقل من الحر في الحقوق والمعاملات ثم يناقض ذلك حينما يتعلق الامر بالحكم ...

كثيرا من المجمعين علي صحة الحديثين اللذين نحن بصددهما الان يربطون الحديثين بأن بيعة الامام قائمة حتي وان كان عبدا ما اقام دين الله والسؤال المباشر لهم وهل صحابة النبي واسرته حينما قاموا يدافعون عن حق الناس في الشوري لم يعوا هذين الحديثين وهل اهل المدينة الذين شقوا عصا الطاعة ليزيد فأبيدوا عن اخرهم لم يعوا ايضا هذين الحديثين وهل من قاموا ضدهم

بالثورات لم يقيموا دين الله حتي استحقوا الثورة عليهم ؟!!!فمعاوية بن ابي سفيان اول من انشأ اسطولا بحريا في تاريخ الاسلام وقد ارسل ابنه يزيد لغزو الروم العدو التقليدي المسلمين في عقر دارهم القسطنطينية كما ان في عهد يزيد تمكن عقبة بن نافع من بسط راية الاسلام في افريقيا كما أن الحجاج بن يوسف والذي قتل عبد الله بن الزبير وغيره من الصحابة المناوئين للأمويين كان اول من أمر بوضع النقاط علي أحرف القران كما شجع استمرار الفتوحات الاسلامية في الهند والصين فهل هذه الاعمال تخرج اصحابها من طاعة الله!!! بالطبع لا.. انما القضية اكبر من هذا انها قضية الحرية والشوري وحق الناس في اختيار من يحكمونهم ورحم الله الشيخ الجليل جمال الدين الافغاني حينما قال مقولته الشهيرة: ملعون في دين الرحمن من يسجن شعبا من يخنق فكرا من يرفع سوطا من يسكت رأيا من يبني سجنا من يرفع رايات الطغيان ملعون في كل الاديان من يهدر حق الانسان حتي لو صلي أو زكي أو عاش العمر مع القران...

لقد آن الاوان ان نتحرر من ربقة الاظلام المتعمد في ديننا وان نري الاسلام كمنهج متكامل يعتمد علي العقل والنقد والحرية وقتها ستنفتح نوافذ الابداع ونطل على العالم بوجه تنويري يبني حضارة قوية قادرة علي المنافسة والمشاركة واسعاد امة حولها الطغيان الي الشتات.

المقال الحادي عشر: القيادة في الاسلام بين الحقيقة والاكاذيب

حينما نتحدث عن القيادة في الاسلام فلابد وان نلتمس من حياة النبي صلي الله عليه وسلم ما يكون لنا نبراسا علي الطريق فقد كان النبي صلي الله عليه وسلم يعتمد في تعامله مع الصحابة علي ما نسميه اليوم بالقيادة بمفهومها الشامل وليس الادارة وكانت كل عناصر هذه القيادة متوفرة في شخص النبي الكريم فكان النبي يمتلك رسالة واضحة يجملها قول النبي صلي الله عليه وسلم ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) فالمنظومة اخلاقية في الاساس وعلي الاخلاق يقوم الدين فيقول النبي صلي الله عليه وسلم ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا)) وفي ضوء هذه الرسالة واهدافها الواضحة كانت الاولويات في الدعوة مصاغة ومحددة والخطوات لتنفيذ هذه الاولويات واضحة ومتدرجة فحينما بعث النبي صلي الله عليه وسلم معاذا إلى اليمن قال: إنك تقدم على قوم أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله. فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس»

وكان النبي يعتمد على النمط التفاعلي فهو يشاور ويناقش اصحابه ويأخذ بأرائهم فمثلا نجده يستشير الانصار قبل الدفع بهم في أتون حرب موشكة مع قريش كما ينزل علي رأي الشباب بالخروج لملاقاة العدو خارج المدينة في غزوة احد كما يأخذ بالخطة الحكيمة لسلمان الفارسي للذود عن المدينة ويحفر خندقا حولها. كما كان الصفح والتسامح من شيمه الكريمة فحينما قبض علي امرأة تحمل كتابا مِن الصحابيْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا حَاطِبُ مَا هَذَا ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لا تَعْجَلْ ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ بِمَكَّةَ , وَلَمْ يَكُنْ لِي فِيهِمْ قَرَابَةٌ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُهُ كُفْرًا وَلا ارْتِدَادًا وَلا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلامِ , فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ " . قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ , قَالَ : " إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ , فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "

وما حدث في فتح مكة فيه من قيم التسامح والرحمة الكثير ومن ذلك: أمره للمسلمين أن يدخلوا مكة بروح الموادعة والرحمة والمسالمة بلا قتال. لقد كان ضمن الجيش الزاحف ما يُسمَّى بـ"الكتيبة الخضراء" أو "كتيبة الحديد" - وكان عليها "سعد بن عبادة" الذي أخذه شيء من الزَّهْو، فصاح: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحَل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا"، فغضب النبي- صلى الله عليه وسلم- وأعطى الراية لـ"علي بن أبي طالب"، وقال: " لا يا سعد، بل اليوم يوم المرحمة، اليوم تقدس الحرمة، اليوم أعز الله قريشاً بالاسلام.. فنجد النبي في هذا الموقف يسحب الراية ممن يريد العنف والقسوة ويعطي الراية لمن يحفظ الحرمة .

ننتقل من هذه الصور التي تبرز المواصفات التي ارساها النبي وطبقها علي نفسه وكذلك حكمت اختياراته لقادته في الحروب الي الصورة المناقضة لذلك والتي اتفق علي وضعها الفقهاء وجعلت دفة القيادة للقوي الشجاع الفاجر مقدمة علي الضعيف الورع لتهدم منظومة القيم التي تحكم عدالة المعركة التي يخوضها القائد.

فقد اجتمع الفقهاء علي انه اذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة ; قدم أنفعهما لتلك الولاية: وأقلهما ضررا فيها ; فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع - وإن كان فيه فجور - على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينا ...

. تصور عزيزي القاريء أن الفجور يعلو الامانة والورع فهل يختلف هذا عما جاء به ميكافيللي فيما بعد !!!!!; اما حكمة هؤلاء الفقهاء فقد ساقها الإمام أحمد حينما سئل : عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف مع أيهما يغزى ؟ فقال: إما الفاجر القوي فقوله للمسلمين وفجوره على نفسه!!! ; وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزى مع القوي الفاجر!!(والرجل الفاجر في مفهومهم يشمل من كان كافرا ومن كان فاسقا)ً، . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم {إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . وروي بأقوام لا خلاق لهم} .

ولنتوقف مليا عن هذه القصاصة من حديث طويل لنري ماذا فعل هؤلاء الفقهاء بديننا ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الذي قلت إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً، وقد مات، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إلى النار. قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب! فبينما

هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت، ولكن به جراحاً شديداً، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله، ثم أمر بلالاً فنادى بالناس إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر

. عزيزي القاريء تأمل معي الحديث بجملته فالنبي ينكر علي رجل مدعي للاسلام ولكنه قاتل في صفوف المسلمين ببسالة ان يكون من أهل الجنة فيرتاب الناس ثم يتبين للناس صدق قول النبي ويعلموا ان هذا الرجل المستبسل لم يبدي نفس الاستبسال في الصبر علي جروحه وقتل نفسه مرتكبا اعظم معصية وكان درس النبي لهم هو انه لا يدخل الجنة الا نفس مسلمة ..كل ما لعبه الرجل الفاجر في هذا الحديث هو التدليل علي صدق النبي في درسه الرائع للناس .هل يمكنك يا عزيزي القاريء ان تستنبط من الحديث شيئا اخر؟ .. بالطبع لا .ولكن الفقهاء حملوا الحديث ما ليس فيه وما يخرج تماما عن سياقه واقتصوا عبارة صغيره انشأوا بها فقه للإبادة والقتل والتنكيل واغتصاب النساء والممتلكات. في جريمة في حق البشرية جمعاء بتشوية دين بعيدا كل البعد عن هذا الفهم الشاذ.

وحتي تجتمع لدينا كل معطيات هذا الفقه الشاذ علينا ان نناقش المثال الحي والوحيد الذي يتم الدفع به عند الحديث عن هذا الامر وهو استعمال النبي للصحابي خالد بن الوليد علي الرغم من انكاره عليه في بعض الامور وقول النبي عنه: {إن خالد سيف سله الله على المشركين } . والسؤال هل النبي اعتمد علي خالد بن الوليد بشكل كلي في كافة غزواته؟. الاجابة لا. بل قاتل خالد بن الوليد تحت امرة اخرون ووفق صلاحيات محدودة..

ففي فتح مكة والذي اشرنا اليه آنفا وروح السلام التي سرت بين جموع اهل قريش ومع ذلك رفع النبي يديه إلى السماء بسبب خالد قائلا: { اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد } حينما أعتمد علي خالد بن الوليد وارسله إلى بني جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم دون حق!! وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة حتى وداهم النبي صلى الله عليه وسلم وضمن أموالهم.. ومنذ هذا الحين كانت صلاحيات خالد في المعارك صلاحيات محدودة وهو ما يبرز بشدة في موقعة مؤتة فقد قدم عليه النبي ثلاثة من الصحابة هم زيد بن حارثة و جعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة لأمرة المعركة مع انهم دون خالد في الخبرة العسكرية والقوة والبأس فهل النبي لم يحط خبرا بما احاط به السادة الفقهاء من بعده ان القائد الفاجر مقدما علي الورع ؟!!!..

فأين كان خالد في هذه المعركة فقد وضعه النبي كخيار اخيرا بعد استشهاد القادة الثلاثة السابقين عليه وهنا تتجلي عبقرية النبي في ترتيبه لهؤلاء القادة فقد طبق خالد انسحابا تكتيكيا رائعا قلل من خسائر المسلمين في هذه المعركة..

وحينما جهز النبي في اواخر حياته جيشا للثأر من الروم لهذه الفاجعة ولي اسامة بن زيد وهو الشاب الصغير ليثأر لوالده فتكلم قوم وقالوا «يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين»، فغضب النبي محمد غضبًا شديدًا، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال «أما بعد، أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله إن كان للإمارة لخليقًا وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإنهما لمخيلان لكل خير، واستوصوا به خيرًا، فإنه من خياركم» انظروا اعزائي القراء لاستعمال النبي الكريم للفظ خياركم وليس اشدكم او افجركم!!! .. والسؤال لماذا لم يستعمل النبي خالد بن الوليد وهو الاقدر والاعنف للثأر من الروم خاصة انه ادار انسحابا رائعا في المعركة السابقة وقدم غلام صغير هو الاقل خبرة في مثل هذه المعارك.. الاجابة حملها لفظ خياركم

الحقيقة ان الاسلوب العنيف للصحابي الجليل الذي لا نقلل ابدا من مكانته كان مرفوضا من النبي صلي الله عليه وسلم ومن الصحابة ايضا وقد وصل عنفه الي مستوي غير مسبوق الي الحد الذي يقتل فيه خصمه ويطهوه ويأكله!!!! ثم يزني بزوجته وهو ما رفضه عمر بشدة واراد اقامة الحد عليه غير ان الخلفية ابو بكر رفض ذلك واعتبره اجتهادا من خالد!!!!!. فعن ابن أبي عون وغيره : أن خالد بن الوليد أدعي أن مالك بن نويرة ارتد بكلام بلغه عنه ، فأنكر مالك ذلك ، وقال : أنا على الإسلام ما غيرت ولابدلت وشهد له بذلك أبو قتادة وعبد الله بن عمر فقدمه خالد وأمر ضرار بن الأزور الأسدي فضرب عنقه ، وقبض خالد امرأته ، فقال لأبي بكر: إنه قد زنى فإرجمه ، فقال أبوبكر : ما كنت لأرجمه تأول فأخطأ ، قال : فإنه قد قتل مسلماًً فإقتله ، قال : ما كنت لأقتله تأول فأخطأ ، قال : فإعزله ، قال : ما كنت لأشيم لأشيم : أي لأغمد ، والشيم من الأضداد يكون سلاً وإغماداً ، سيفاً سله الله عليهم أبداً.

وفي رواية اخري فلما دخل المسجد قام إليه عمر بن الخطاب فانتزع الأسهم من عمامة خالد فحطمها وقال: أرياء قتلت أمراً مسلماًً، ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بالجنادل وخالد لا يكلمه ولا يظن ألا إن رأي الصديق فيه كرأي عمر ، حتى دخل على أبي بكر فاعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه ما كان منه في ذلك ، وودى مالك بن نويرة ، فخرج من عنده وعمر جالس

في المسجد ، فقال خالد : هلم إلي : يا ابن أم شملة ، فلم يرد عليه وعرف أن الصديق قد رضي عنه.

وفي رواية تظهر لنا موقف الصحابي ابو قتادة :أخبرنا : عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري : أن أبا قتادة ، قال : خرجنا في الردة حتى إذا انتهينا إلى أهل أبيات ، حتى طلعت الشمس للغروب ، فأرشفنا اليهم الرماح ، فقالوا : من أنتم ، قلنا : نحن عباد الله ، فقالوا : ونحن عباد الله ، فأسرهم خالد بن الوليد ، حتى إذا أصبح أمر أن يضرب أعناقهم ، قال أبو قتادة : فقلت اتق الله يا خالد فإن هذا لا يحل لك ، قال : اجلس ، فإن هذا ليس منك في شيء ، قال : فكان أبو قتادة يحلف لا يغزو مع خالد أبدا ، قال : وكان الأعراب هم الذين شجعوه على قتلهم من أجل الغنائم ، وكان ذلك في مالك بن نويرة.

فمن هو مالك بن نويرة وما هي جريمته الشنعاء التي استحق عليها ان يقتل وتتطهي رأسه ويدخل بأمرأته يوم مقتله؟!!! انه سيد من سادات تميم وكان صاحب الكلمة النافذة في قومة وهو السبب في دخولهم الاسلام قال النبي فيه: (من أراد ان ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا الرجل)ولثقة النبي فيه اوكل اليه جمع الصدقات من قومه وتوزيعها علي الفقراء .

وكل جريمته انه اتهم بالامتناع عن دفع الزكاة بعد وفاة النبي وهي شبهة فهل يقتل الرجل بشبهة وقد شهد ان لا إله الا الله ...

الاجابة يحملها لنا قول النبي صلي الله عليه وسلم لاسامة بن زيد وقد قتل رجلا شهد ان لا اله الا الله خوفا من القتل فجاء البشير إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فسأله وأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فسأله فقال: ((لم قتلته؟))، فقال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين، يعني أكثر القتل، فقتل فلاناً وفلاناً، وسمى له نفراً، -النفر ما بين الثلاثة إلى التسعة-، سمى له نفراً، يعني هذا رجل قتل من المسلمين عددًا، ثم قال: لا إله إلا الله بعدما حملتُ عليه، قال: وإني حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : ((أقتلته؟))، قال: نعم، قال: ((فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟))، قال: يا رسول الله استغفر لي، قال: ((وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟))، فجعل لا يزيد على أن يقول: ((كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟))، رواه مسلم هذا الحديث في كافر قال لا اله الا الله فوجب حقن دمه فما بال مسلم يقول لا اله الا الله واستحل دمه

وعرضه، ومع حب النبي لأسامة بن زيد ، الا انه لم يستغفر له، وقال له ((كيف تصنع بلا إله إلا الله؟))،وهو نفس موقف النبي مع خالد حينما قتل بني جذيمة دون جريرة فلم يستغفر له ..

ولم يتوقف الامر بالصحابي خالد بن الوليد عند هذا الحد بل انه حينما ظفر بجيش الفرس ضرب اعناق سبعين الفا من الاسري في مشهد لو حدث بالفعل فليس له نظير في التاريخ البشري قاطبة

حيث أخذهم خالد جميعًا عند نهر «أليس» وسد عنه الماء ومكث يومًا وليلة يضرب أعناق الأسرى حتى يجري النهر بدمائهم وفاء بنذره لله عز وجل ان يروي النهر بدمائهم!! فقال له القعقاع بن عمرو ولعله هاله هذا الكم الرهيب من الدماء: لو أنك قتلت أهل الأرض جميعًا لم تجر دماؤهم «لأن الدم سريع التجلط»، فأرسل الماء على الدماء يجري النهر بدمائهم، ففعل خالد ذلك وسمى النهر من يومها نهر الدم فهل يعقل ان يكون هذا مصير الاسري في الاسلام؟!!

الحقيقة ان كل ما سبق واعطاء كافة الصلاحيات لخالد بن الوليد كان في عهد الخليفة ابو بكر الصديق والذي بوفاته افل نجم الصحابي خالد بن الوليد حيث بادر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الي عزله وفي ساحة القتال وتولية ابو عبيدة بن الجراح مكانه وهو المعروف بلين جانبه فهل يا تري كان ايضا عمر لا يعي تقديم القائد القوي الفاجر علي القائد الورع ...ودائما ما تجد حجة العلماء في عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد هو خشية عمر من افتنان الناس بسيف خالد متجاهلين كافة الظروف والملابسات والاسلوب العنيف في القتال الذي استخدمه خالد ولم يكن عمر عنه راض وكثير من الصحابة ايضا..

اننا بدراستنا هذه لا نريد ان نحاكم صحابيا او نشوه صورته بل نريد ان نسلط الضوء على صور موجوده في كتب التراث هي التي يستلهم منها داعش والنصرة اليوم فهل تجد عزيزي القاريء فيما سردته عن الصحابي الجليل خالد بن الوليد ما يختلف مع ما تفعله النصرة وداعش بحق المدنيين المسلمين وغير المسلمين ونري شجبه من مؤسساتنا الدينية في كل مكان من العالم العربي؟! طبعا لا يوجد اي فارق ولهذا ولان الخطب اصبح جللا واصبحت دماء المسلمين وغيرهم تراق في كل مكان من العالم العربي فعلي المؤسسات الدينية ان تكون اكثر فاعلية وبدلا من بيانات الشجب ان تكون اكثر شجاعة وتعترف بوجود مشكلة حقيقية في القصص الاسلامي وتضع نصب اعينها خيارات ثلاث :الاول ان تقر بخطأ الصحابي خالد بن الوليد وخطأ الفقهاء الذين بنوا علي عنف شخص فقها بأكمله وأن هذه الافعال ليست من الاسلام في

شيء ولم يرتضيها النبي في حياته كما لم يرتضيها عمر بن الخطاب .الخيار الثاني هو الاخذ بالمنهج العلمي في الوقوف علي صحة هذه القصص من عدمه وجعل البحث عن الوسائل لتضعيفها هو الاساس وتبرئة هذا الصحابي من الكثير من هذه المبالغات ونشر ذلك علي نطاق واسع .اما الخيار الاخير فهو التوقف عن نشر الكتب التي تحمل هذه القصص سواء حدثت بالفعل او ثبت عدم حدوثها والتنبيه عليها فهو علم لا ينفع بل يضر ويأصل للعنف والارهاب والوحشية وعدم احترام حقوق البشر ..

المقال الثاني عشر: وطن من زجاج

عصر الخديو: لا يمر الحديث عن نهضة مصر إلا وقرين بها ذكر الخديو إسماعيل ولكن هل كانت هذه النهضة حقيقية؟..

من هو الخديو إسماعيل ؟

هو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي باشا الكبير. ولد بحي الجمالية وتحديدا في قصر المسافرخانة وهو الابن الأوسط لإبراهيم باشا والأخ غير الشقيق للأميرين أحمد رفعت ومصطفى فاضل من والده غير والدتيهما.

كانت نشأة إسماعيل أوروبية فقد شاء القدر ان يصاب برمد صديدي يدفع أبيه إلى إرساله في رحلة علاجية وتعليمية أيضا إلى فينا ومنها لباريس عاصمة الحضارة والعلوم ومن هنا نشأت ميوله الباريسية التي رافقته طيلة حياته فأتقن اللغة الفرنسية بشكل كامل وصار حلمه أن يحول القاهرة إلى باريس جديدة..

وعاد في حياة ابيه ابراهيم إلى مصر والصورة الباريسية الفخمة لا تفارقه وبوفاة ابيه انتقل الحكم إلى عباس الأول ونظرا لانغلاق عباس وكراهيته لمظاهر الحضارة والتعليم وولعه بإنشاء القصور في الصحاري وقد تسمت العباسية الحي الشهير بمصر باسمه وكانت انتشار الجاسوسية في عهده بشكل صارخ فكان لا يأمن أحدا على عاقبة ما يسره في نفسه أو ينطقه بلسانه فقد كان الجزاء هو النفي إلى السودان حيث الموت المحقق لاستيطان الامراض بها فكان من الطبيعي أن تكون الفجوة بين عباس واسماعيل... بمقتل عباس في قصره ببنها بيدي خدمه آل الحكم إلى سعيد باشا والذي كان إصلاحيا كبيرا فتعود إليه اللائحة السعيدية والتي منحت الفلاح المصري لأول مرة في تاريخه حق تملك الأراضي الزراعية وحرية التصرف في حاصلاته الزراعية بالبيع كيفما يشاء وليس حصرا على الدولة كما كان بالسابق وسداد الضريبة نقدا. كما وضعت لائحة المعاشات للموظفين المتقاعدين...

وفي إحدى خطب سعيد يقول :(أيها الأخوان إني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض وحيث أني اعتبر نفسي مصريا فوجب على أن أربي أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة

صحيحة نافعة ويستغني بنفسه عن الأجانب وقد وطدت نفسي على إبراز هذا الرأي من الفكر إلى العمل).

ولانه ليس بالنوايا الحسنة تبني الأوطان فوقع سعيد في شراك الإستدانة من الخارج كما منح امتياز حفر قناة السويس إلى صديقه الفرنسي المسيو دلسبس وهو الذي حول موقع مصر ليكون هدفا للهجمات الاستعمارية فضلا عن ارباكه لمالية مصر .... وقد تحمس سعيد للمشروع على الرغم من معارضة الباب العالى بإيعاز من اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا آنذاك ...والذي خشي من تفشي النفوذ الفرنسي في مصر

قصة أول قرض:

كانت ثقة سعيد باشا بالأجانب كبيرة إلى حد منح برافاي وكان فرنسيا جاهلا كل ثقافته مجموعه من النكات والفكهات يلقيها على مسامع سعيد فحصل على امتياز مناجم البحر الأحمر وقد تمكن بفضل نفوذه لدى سعيد من تكوين ثروة كبيرة أوصلته لقبة البرلمان في فرنسا. وكان يكفي لاي مخادع أجنبي أن يدعي أن ضررا مادي قد حدث له في الماضي أو الحاضر مشفوعا بمذكرة من قنصل بلاده ليحصل علي ما يشاء من تعويض من خزينة مصر والنتيجة الحتمية هى إفلاس الخزانة لتوقع مصر أول قرض خارجي في تاريخها الحديث مع مصرف أوبنهايم الألماني بمبلغ ٢,٥ مليون جنيه استرليني بفائدة ١١ في المائة وبضمان حصيلة ضريبة أطيان الدلتا بالطبع لم يكن هذا القرض بدافع التنمية إلا إذا اعتبرنا أن شراء أسرة فضية كهربائية لسعيد بمناسبة زفاف ابنه أو استيراد نظارات معظمة من باريس بمبالغ طائلة من قبيل .. !التنمية

حكم الاقدار:

تبعا لنظام الحكم في الأسرة العلوية لم يكن إسماعيل الأحق بالحكم بعد عمه سعيد باشا ولكن حادثا ربما كان قدريا وربما كان بتدبير إسماعيل نفسه قد أزاح الأمير أحمد رفعت ولي العهد فقد غرق إثر سقوطعربة كانت تقلهعند كفر الزيات في طريق العودة من حفلة أقامها سعيد واعتذر عنها إسماعيل إثروعكة صحية....!! وبوفاة أحمد رفعت أصبح إسماعيل ولي العهد .رسميا... ثم بوفاة سعيد صار واليا لمصر

العلاقات مع الباب العالى :بدأ إسماعيل عهده بزيارة للباب العالى للقاء السلطان عبد العزيز لتقديم فروض الولاء والطاعة وكان يبذل المال الكثير في سبيل كسب ود السلطان وحاشيته ورد

السلطان عبد العزيز الزيارة بأخرى لمصر عام ١٨٦٣ لمدة عشرة أيام لاقي فيها من حفاوة إسماعيل الكثير وقد تسمى شارع عبد العزيز الشهير بمصر بهذا الاسم تيمنا بهذه الزيارة التي عظمت من شأن إسماعيل....

عرش في المزاد:

سعى إسماعيل إلى تغيير نظام توارث العرش ليكون في أكبر أبنائه بدلا من أكبر أبناء الأسرة العلوية سنا ولقد صادف هذا المأرب هوي في نفس السلطان والذي كان يسعى هو الآخر لتغيير نظام توراث الحكم ليتولى ابنه من بعده.... كان أبرز اسباب إسماعيل في هذا السعي حرمان ابن أخيه الأمير مصطفى فاضل ولي العهد والامير عبد الحليم عمه من وراثة العرش... وقد أغدق كلا الطرفان على الباب العالى لكسب وده ففيما أنفق إسماعيل أموال طائلة للحصول على فرمان بجعل الوراثة في أكبر أبنائه أنفق مصطفى فاضل وعبد الحليم أموالا كثيرة في المقابل لاحباط مطامع إسماعيل لتكون الغلبة في النهاية لاموال إسماعيل والتي هي في النهاية أموال مصر ..

ولم تتوقف طموحات إسماعيل عند هذا الحد فقد استغل مشاركة مصر للباب العالى في الحرب على جزيرة كريت في الحصول على حق تعيين سفراء لمصر بالخارج فرفض الباب العالى بشدة خشية استفحال النفوذ المصري مما اغضب إسماعيل وظهرت الفجوة جلية بين الطرفين في دعوة إسماعيل المنفردة لملوك أوروبا إلى حفل افتتاح قناة السويس دون وساطة تركية...

زخرفة مصر!

كان إسماعيل يريد استئصال مصر من محيطها الافريقي وتحويلها إلى باريس فأنشأ الأوبرا احتفالا بافتتاح قناة السويس وقد صنعت من الخشب وقد اشترك المعماريان بيترو أفوسكاني وروتسيي في تصميمها وكان اول عرض أوبرالي بها هو معزوفة ريغوليتو لفيردي ثم أوبرا عايدة لفيردي أيضا... كان اختيار مكان الأوبرا بين الازبكية وميدان التحرير وهي مناطق شعبية مكتظة بالسكان ويتحدث ألفريد جاشوا بتلر في كتابه: الحياة في البلاط الملكي المصري أن الخديو إسماعيل حصل على أرض دار الأوبرا بإضرام النار خلسة في بيوت أهل المنطقة ليرغمهم على قبول ترك منازلهم مقابل تعويض مناسب... ويشاء الله أن يلحق بالاوبرا التي شيدها المصير نفسه بعد ذلك بعقود وتحديدا عام ١٩٧١ حينما شبت فيها النيران.

أنشأ إسماعيل مسرحا بحديقة الازبكية على أن يكون هزليا فقط إلا أن يعقوب صنوع أو موليير مصر لم يرتضي أن يقتصر المسرح على الكوميديا فخرج عن الخط الموضوع له وقدم مسرحية الوطن والحرية والتي سخر فيها من فساد القصر وسلطة الخديو المطلقة كما أنشأ عدد من الصحف المعارضة مثل أبو نضارة وأبو صفارة وأبو زمارة والثرثارة المصرية فضلا عن انشائه جمعيتين ادبيتين هما محفل التقدم ومحفل محبي العلم مما أثار سخط إسماعيل عليه فنفاه لفرنسا...وهو مايكشف لنا عن ديكورية بناء في عهد إسماعيل الذي لم يحتمل أي معارضة في عهده..

قد يعتبر إنشاء مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦ سابقة تاريخية تحسب للخديو غير أنه جاء مفرغا من أية صلاحيات كما أنه لم يمثل الشعب بشكل حقيقي فقد أوكل انتخاب النواب لعمد البلاد ومشايخها مما أسفر عن انتخاب غالبية نواب المجلس من العمد والأعيان لضمان الولاء التام لسلطة الخديو المطلقة وسط غياب للنخب المتعلمة وممثلي الصناع والتجار مما يجعله مجلس للاعيان أكثر من كونه مجلسا لنواب الشعب ويسوق المسيو جليون دنجلار في رسائله عن مصر الحديثة أن نائبان خالفا رأي الحكومة فطردا بأمر الخديو باعتبارهما خطر على الأمن العام.

لا يمكن إغفال دور الخديو في النهوض بالتعليم النسائي فقد أقام المدارس للنهوض بهذا الغرض الذي سبق به

عصره

إفلاس مصر:

ورث اسماعيل الديون عن سلفه وبدلا من أن يعيد دفة الدولة إلى رشادها توسع في الاقتراض ...

كان تولي اسماعيل عام ١٨٦٣ وكانت الحرب الأهلية الأمريكية مشتعلة مما أدى لانخفاض الصادرات من القطن الأمريكي لمصلحة القطن المصري وكانت الفرصة عظيمة أمام إسماعيل لكن اسماعيل لم يعتمد علي موارده في سد عجز الخزانة بل عقد قرضا خارجيا بمبلغ ٥,٧ مليون جنيه عام ١٨٦٤ وليبلغ حجم ديون اسماعيل عام ١٨٧٦ واحد وتسعون مليون جنيه مما أوقع المالية المصرية في براثن المراقبة الأوروبية...وكان جل الأموال ينفق في مشاريع البنية

التحتية كتشييد القصور الفارهة وتجميل الشوارع والميادين والحفلات دون الالتفات إلى الصناعة ما عدا صناعة السكر والتي شهدت توسعا في عهده.

بلغ الخديو إسماعيل مبلغا كبيرا في الإسراف والتبذير وعدم الاكتراث جعل من مصر قبلة للطامحين من المفلسين الأوربيين ليكونوا ثروات لا تخطر على بال فبحسب اللورد كرومر في كتابه مصر الحديثة أن إسماعيل أنفق على إصلاح ميناء الإسكندرية ٢٥٠٠٠٠٠ جنيه عبر شركة جرنفلد الإنجليزية في حين كانت التكلفة الحقيقية ١٤٤٠٠٠٠ جنيه.

وفي الوقت الذي كانت تبنى المدارس في عهده بجمع التبرعات من الأهالي دون مساهمة الدولة ويوجد بكتاب تقويم النيل لأمين باشا سامي جداول تفصيلية لتبرعات العديد من المشايخ والعمد والوجهاء بالجهات المختلفة لصالح انشاء المدارس الأهلية بمناطقهم إلا أنه في المقابل نجد اسرافا لا مثيل له في التاريخ بمناسبة حفل افتتاح قناة السويس وقد قدرت ب ١٤٠٠٠٠٠ جنيه وهو مبلغ مهول بتقديرات هذا الزمان.

وصلت الخزانة المصرية إلى حد الإفلاس عام ١٨٧٥ ورهن إسماعيل موارد الدولة ووصل الأمر إلى حد بيع أسهم مصر في قناة السويس للحكومة البريطانية وفاءا لبعض الديون وتعهد بنك روتشلد بلندن بأداء القيمة للخديو. وقد اعتبرت بريطانيا استحواذها على هذه الأسهم فوزا مؤزرا على الأطماع الفرنسية في مصر... ومع أزمة فرنسا بعد خروجها مهزومة من الحرب السبعينية مع الألمان وجد الخديو أنه بحاجة لتوطيد مركزه المالي المتهاوي عبر الاستعانة بحليف قوي هو بريطانيا كبديل لفرنسا فطلب من بريطانيا إيفاد موظفين لضبط الإيرادات والمصروفات ولكنها أرسلت بدلا من ذلك لجنة لدراسة حالة الحكومة المصرية المالية وكان في ظنه أن الاحتفاء باللجنة قد يغير من نتيجة تقريرها ويجعله مسوغا لإعادة الثقة في حكومته أمام البيوت المالية الأوربية وأمام بريطانيا فيعاود الاقتراض مجددا ولكن تقرير لجنة (ستيفن كيف عضو مجلس العموم) الإنجليزية كان مخيبا لآماله فقد خرج التقرير بنتيجة هي سوء حالة المالية المصرية وضرورة وضعها تحت الرقابة الأوروبية....

خشيت فرنسا من هذا الظهور البريطاني وقررت هي الأخرى إيفاد بعثة أوتريه القنصل الفرنسي السابق في القاهرة ووافق إسماعيل بعد أن تأكد أنه لن يحصل على المال الذي يريده من بعثة (كيف)..

انتهى الأمر بإنشاء صندوق الدين ومهمته أن يكون خزينة فرعية للخزانة العامة تتولى تسلم مبالغ الديون من إيرادات المديريات والكبار والجمارك والسكك الحديدية فضلا عن توحيد الديون لتكون دينا واحدا وقيمته ٩١٠٠٠٠٠٠ جنيه انجليزي تسدد في ٦٥ عاما وفائدة سبعة في المائة... وإنشاء مجلس أعلى للمالية مكونا من عشرة أعضاء نصهم من الأجانب والنصف الثاني من الوطنيين ثم اتخذت إجراءات لاحقة منها فرض الرقابة الثنائية الإنجليزية والفرنسية على المالية المصرية وتشكيل لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء الإسكندرية. وتشكيل وزارة مختلطة برئاسة نوبار باشا لها صلاحيات كاملة ومسئوليات مستقلة عن سلطة الخديو وضمت الوزارة وزيرين أوروبيين أحدهما للمالية..

مقتل الخديو الصغير :مع الرقابة الثنائية اضطر الخديو إسماعيل إلى التضحية بوزيره للمالية وأخيه في الرضاعة إسماعيل باشا صديق المفتش أو الخديو الصغير كما أطلق عليه المؤرخون وإقالته ونفيه إلى دنقلة ثم دبر لقتله كان الرجل الذي تولى قتل إسماعيل المفتش خنقا ثم إلقاء جثته في اليم هو إسحاق بيك مقدم العسكر وقد استبسل إسماعيل في التشبث في الحياة فعض أحد أصابع إسحاق بيك حتى فصله عن كف يده فصارت يده مشوهه وقد تم إلحاقه بخدمة الأمير محمود قبيل ابن إسماعيل كما تناقل البعض أن من قام بهذه المهمة هو مصطفى بك فهمي شريك عرابي في ثورته لكن الرواية الأولى هي الأكثر شهرة واتفاقا لدى المؤرخين..

ولقد انقسم الكثيرون حول شخصية المفتش فرأي البعض أنه سببا رئيسيا في الأزمة المالية بكونه أداة لسيده الخديو في العبث بمالية مصر وأن الخديو أراد بقتله إهالة التراب على الماضي وأسراره بينما رأي البعض أن المفتش كان وطنيا ورافضا للرقابة الثنائية بإيعاز من تركيا وأنه كان على وشك الفرار للاستانة مما عجل بقتله خشية فضح أسرار الخديو..

أعظم أخطاء إسماعيل:

تعتبر حرب الحبشة من الأخطاء التي لا تقل ضراوة وفداحة عن الأزمة المالية التي تسبب فيها إسماعيل فقد كبدت الدولة المصرية خسائر فادحة في الأموال والأرواح.. بدأ الصراع برغبة إمبراطور الحبشة يوحنا في بسط نفوذه على البحر الأحمر عبر إنشاء ميناء خاص ببلاده عليه فرأي إسماعيل في ذلك تهديدا لنفوذه فأضمر في نفسه احتلال الحبشة فأرسل حملتين واحدة تلو الأخرى الأولى بقيادة أرندروب بك على جونديت والثانية بقيادة منزنجر باشا ومنى إسماعيل بهزيمة ساحقة في الحملتين وابيد أكثر القوات المصرية المرسلة كما قتل قائدا الحملتين.. قرر

إسماعيل الثأر لكرامته للمرة الثالثة فحرك جيشا جرارا بقيادة السردار راتب باشا والجنرال الأمريكي لورنج باشا والامير حسن ابن الخديو لتتكرر المأساة ويهزم الجيش المصري في بلدة قورع وانتهى الأمر بالصلح بين البلدين ولكن نالت الهزيمة من هيبة مصر بشكل كبير.

للشعب رأي أخر:

قامت وزارة نوبار بضغط النفقات عبر إحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الأستيداع فلجأوا إلى التظاهر واعتدوا على نوبار باشا بالضرب فتدخل الخديو لإنهاء الأزمة وحل مشكلة الضباط وشكل وزارة برئاسة ابنه توفيق مع منح الوزيرين الأوربيين بها حق الفيتو على أي قرار يصدر من مجلس النظار دون موافقتهما...

ضاق المصريون ذرعا بالتدخل الأجنبي فاجتمع عدد من ممثلي الشعب في مقدمتهم شريف باشا وقرروا وضع مشروع وطني لسداد الديون عرف باللائحة الوطنية وقدموه للخديو إسماعيل فقبله وزاد عن ذلك بتشكيل وزارة وطنية برئاسة شريف باشا وكان هذا الانحياز من إسماعيل تجاه الاحرار من شعبه وإن جاء متأخرا للغاية موغر لصدر بريطانيا وفرنسا وباقي الدول الأوروبية فعزموا على عزل إسماعيل واستصدروا بالفعل فرمانا من الباب العالي بعزله عام 1879.

حاول إسماعيل استجداء الباب العالي بالعدول عن عزله بالهدايا ولكنها لم تكن من العظمة والثراء الذي يثير لعاب الباب العالي كما في المرات السابقة كما أن اجماعا دوليا انصب على عزل إسماعيل ورحل إسماعيل إلى منفاه بإيطاليا ثم انتقل بعد سنوات للاستانة

ديانة إسماعيل :من المباحث الطريفة والتي لا يقترب منها الباحثون هي الديانة الحقيقية للحكام باعتبارها شأنا خاصا بأصحابها لكنها في واقع الأمر قد ترصد نفاقا داخليا في نفوس أصحابها وحقيقة نظرتهم لشعوبهم والتي تحمل أحيانا قدرا كبيرا من الاستخفاف ففي كتاب ألفريد جاشوا بتلر :الحياة في البلاط الملكي المصري وكان من خاصة الخديو توفيق ينقل نصيحة قصة مفاداها أن إسماعيل كان غاضبا من ابنه توفيق لميوله الدينية الإسلامية معترفا بكونه مسيحيا قائلا :(أنا لست مسلما بل إني مسيحي كما نصحه :عندما تتولى العرش تظاهر بأنك مسلم جيد فسيحبك الشعب من أجل ذلك. هذه سياسة جيدة!!)

توسلات الخديو:

داهم إسماعيل في منفاه مرض الاستسقاء وكان الأمل في شفائه ضعيفا فبذل مساعي حثيثة لدى حفيده خديو مصر عباس حلمي الثاني في سبيل عودته لمصر لقضاء أيامه الأخيرة بها لكن رغبة إنجلترا دولة الاحتلال والباب العالي في عدم عودته ذهبت بمساعيه ومساعي عباس أدراج الرياح ووقف عباس مكتوف الأيدي أمام توسلات جده المريض والذي توفي عام ١٨٩٥ لينقل ميتا إلى مصر ويدفن في مسجد الرفاعي...

وهكذا كانت نهاية رجل حاول أن يبني وطنا هشا من زجاج مزخرف بدلا من أن يشيد وطنا قويا مستقلا بسواعد أبنائه وموارده..

المصادر والمراجع

1- البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان – العماد الأصفهاني – المتوفي 597 هـ

2- الفتح القسى في الفتح القدسى – العماد الأصفهاني

3- الكامل في التاريخ – ابن الاثير – المتوفي 630 هـ

4- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية – ابن شداد – المتوفي 632 هـ

5- البداية والنهاية – ابن كثير – المتوفي 774 هـ

6- السلوك لمعرفة دول الملوك – المقريزي – المتوفي 845 هـ

7-بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس

8-عجائب الاثار في التراجم والاخبار عبد الرحمن الجبرتي

9-الاهرام ديوان الحياة المعاصرة يونان لبيب رزق -

10-مذكرات سعد زغلول لعبد العظيم رمضان

11-الكامل في التاريخ لابن الاثير

12-تاريخ الامم والملوك للطبري

13-كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع

14-كتاب تأملات بين العلم والدين والحضارة دكتور محمد فتحي عبد العال

15-موسوعة رجال ونساء من مصر للمعي المطيعة

16-في أعقاب الثورة المصرية ثورة 1919 لعبد الرحمن الرافعي

17-ملفات الاهرام يوميات حادث حزين للدكتور يونان لبيب رزق

18-جمال بدوي –المصور شاهد عيان على الحياة المصرية

19-يسقط الوطن –قصيدة لأحمد مطر

السيرة الذاتية

د. محمد فتحي عبد العال:

كاتب وباحث مصري

بكالوريوس صيدلة -جامعة الزقازيق2004

دبلوم الدراسات العليا في الميكروبيولوجي التطبيقية- جامعة الزقازيق2006

ماجستير في الكيمياء الحيوية- جامعة الزقازيق2014

دبلوم إدارة الجودة الشاملة - أكاديمية السادات للعلوم الإدارية 2015

دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الاسلامية - المعهد العالي للدراسات الإسلامية 2016

شهادة معهد إعداد الدعاة-المركز الثقافي الإسلامي- وزارة الأوقاف 2017

شهادة البرنامج التدريبي لأكاديمية زاد الإسلامية (أون لاين 2019)

العديد من الكورسات والدورات التدريبية في مجال الأحصاء من أكاديمية سايلور (أون لاين2019) ومن كلية العلوم جامعة الزقازيق والمعلوماتية الحيوية من جامعة بكين (كورسيرا أون لاين 2019)

العديد من الكورسات والدورات التدريبية في مجال الجودة الطبية منها شهادة تخصص سلامة المرضى من جامعة جون هوبكينز (كورسيرا أون لاين2018) ومن جامعة ستانفورد أون لاين 2019 وشهادة تخصص في تطوير الأداء ستة سيجما الحزام الاخضر جامعة جورجيا (كورسيرا أون لاين 2018)

العديد من الدورات في مجال الأدارة ومنها الدورة التأسيسية لاعداد القيادات التنفيذية والإدارية والنقابية –وزارة الشباب بالتعاون مع لجنة التعليم بنادي الصيادلة ونقابة صيادلة الشرقية 2015

دورات في تدريب المدربين من مركز سيسكو 2017 ومن مركز التنمية الثقافية والتكنولوجية بمحافظة الشرقية 2017 وMaster Trainer TeamSTEPPS 2018

عضو باللجنة التدريبية بمجلس الإعتماد الدولي للدراسات والأبحاث الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية

الدكتوراه الفخرية من أكاديمية السلام بألمانيا 2018

تكريم كصيدلي مثالي من نقابة صيادلة الشرقية ودرع نقابة صيادلة الشرقية2015

تكريم كصيدلي متميز من نقابة صيادلة الشرقية والهيئة العامة للتأمين الصحي فرع الشرقية ودرع نقابة صيادلة مصر 2016

تكريم كصيدلي مثالي من الهيئة العامة للتأمين الصحي فرع الشرقية 2016

شهادة شكر وتقدير من مجلة مبدعون ووكالة مرآة الحياة العراقية 2018 ومن المركز العراقي للادباء والفنانين الشباب وجريدة طريق القوم بالعراق 2019 ومن صحيفة صدي المستقبل بليبيا 2019.

شهادة تقديرية من مبادرة الباحثون العراقيون 2018

درع الإبداع والتميز وشهادة تقدير من مجلة امارجي الادبية العراقية 2018

شهادة تقدير من اتحاد الصيادلة العرب شعبة المبدعين العرب عن كتاب تأملات بين العلم والدين والحضارة على هامش معرض القاهرة الدولي للكتاب

صيدلي ورئيس قسم الجودة ومدير المكتب الفني بالهيئة العامة للتأمين الصحي فرع الشرقية سابقا

صيدلي بمستشفي المواساة الدمام-الجبيل الصناعية سابقا

مدير الصيدلية الداخلية ومسؤول سلامة المرضى وإدارة المخاطر ومؤشرات الأداء بمستشفي الفلاح الدولي بالرياض سابقا

مستشار طبي بشركتيCAT و237 JLT COMMUNICATIONS بمصر والسعودية والامارات سابقا

كاتب وباحث ثقافي بالعديد من الصحف العربية والبوابات الإلكترونية في مجالات الطب والعلوم والتاريخ والحضارات الانسانية والدراسات الدينية ومن الصحف الورقية التي أنشر بها مقسمة حسب بلدانها:

الجزائر: صحيفة صوت الأحرار الجزائرية (صفحة اسبوعية ثابتة تحت عنوان مساحة رأي)

صحيفة الحوار الجزائرية- صحيفة الجديد الجزائرية-صحيفة الجمهورية الجزائرية – صحيفة كواليس الجزائرية.

مصر: صحيفة الأهرام –صحيفة العروبة-صحيفة الزمان-صحيفة أخبار الأدب-صحيفة الرأي

العراق: صحيفة الزوراء العراقية -مجلة أمارجي الأدبية العراقية- صحيفة النهار العراقية- صحيفة البينة العراقية الجديدة–صحيفة جدار العراقية- صحيفة الكلمة الحرة العراقية –صحيفة ثقافية كل الاخبار العراقية –مجلة مبدعون العراقية –صحيفة سيروان الكردية.

السودان: صحيفة أخر لحظة السودانية.

ليبيا: صحيفة صدي المستقبل الليبية – صحيفة فسانيا الليبية.

حول العالم: صحيفة صوت بلادي بالولايات المتحدة الأمريكية (مقال طبي شهري) - صحيفة أيام كندية (مقال ثقافي شهري).

البوابات الإلكترونية مثل: الجمهورية أون لاين- موقع الدستور الإلكتروني (امان) - موقع هافينغتون بوست الامريكي -عربي بوست-ساسة بوست -بوابتي تونس-راديو صوت بيروت الدولي -راديو صوت القلم الجزائري -فينيق-بقجة –صحيفة المثقف الإلكترونية-فوكس نيوز مصر -الراكوبة -سودانيز أون لاين –صحيفة الفكر الكردية الإلكترونية-صحيفة الحدث الإلكترونية من لندن –صحيفة الفيصل من باريس-صحيفة المنار العراقية الإلكترونية-بوابة الحضارات التابعة لمؤسسة الأهرام.